تُيودور هِرتزِل

"دولة اليهود"

محاولة لإيجاد حل حديث للمسألة اليهودية

ترجمة :

مؤسسة الأبحاث العربية





اشتريته من شارع المتنبي بيغداد
فـــي 20 / ذو القعدة / 1444 هـ
الموافق 09 / 06 / 2023 م

سرمد حاتم شكر السامرائـــي



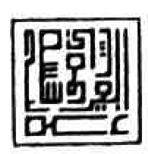
تيودور هرتزل

"دولة اليهود"

محاولة
لإيجاد حل حديث
للمسألة اليهودية

ترجمة :

مؤسسة الأبحاث العربية



* تيودور هرتزل: **«دولة اليهود»**

* الطبعة العربية الاولى - بيروت ١٩٩٧

مؤسسة الأبحاث العربية

ص. ب: ٥٠٥٧ ـ ١٣ (شوران) بيروت ـ لبنان.

هاتف ٨١٠٠٥٥، فاكس ٨٠٤٢٥٧ (١ ـ ٩٦١)

شكر وتقدير

تشكر مؤسسة الأبحاث العربية الأستاذ علي حمدي منكو على تفضله بتمويل ترجمة وطباعة هذا الكتاب. إلا أن المؤسسة وحدها تتحمل مسؤولية ترجمة الكتاب وطباعته ونشره.

المحتويات

مقدمة الناشر

للعرب عدو أساسي هو «**الكيان الصهيوني**»، القاعدة الكبرى للحركة الصهيونية العالمية، والمخفر الأمامي في الوطن العربي لكل القوى المعادية لأمانينا ومصالحنا ومستقبلنا. وهذا العدو أخطر ما واجه الأمة العربية في تاريخها الطويل، وخطره لا يقارن ولا يقاس بما تعرضت له في الماضي من غزوات هولاكو وتيمورلنك وغيرهما، خاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار والتقدير ما حصل من تطورات عميقة وواسعة تحققت للبشرية خلال القرون الماضية في ميادين الحريات العامة والخاصة وحقوق الشعوب في تقرير مصيرها ودعوات الحرية والإخاء والمساواة والعدالة الاجتماعية وحماية حقوق الإنسان. ومع ذلك كله، وفي أواخر القرن العشرين، ومع كل ما تراكم من خبرات وتجارب ومبادىء وثورات وأفكار إنسانية تقدمية يتصرف الصهاينة اليوم وكأنهم الأوروبيون البيض مع السكان الأصليين في القارتين الأميركيتين وأستراليا والمناطق التي تدفقت عليها موجات أولئك المهاجرين منذ قرون، حيث سلب «القادمون» سكان البلاد أراضيهم ومياههم وطردوهم وشرّدوهم خارج بلادهم، بل إن أقواماً عديدة ـ كالهنود الحمر مثلاً ـ جرت إبادتهم.

نعم، إن الصهاينة يتصرفون اليوم متحدّين القوانين الدولية وقرارات الأمم المتحدة والاتفاقات المعقودة ويسنون القوانين العنصرية، ويلجأون إلى أساليب وسياسات ومخططات إعلامية واقتصادية فاقت في براعتها وكفاءتها كل ما كان لدى هتلر وغوبلز وروزنبرغ من وسائل وأساليب

عنصرية عدوانية توسعية. وهكذا يشهد العالم منذ عقود ما بعد الحرب العالمية الثانية صعود «النازية الجديدة» التي تجسد اليوم مرحلة متقدمة من مراحل تطور الاستعمار والإمبريالية والعنصرية والاستيطان في أراضينا خاصة.

إنّ «معرفة العدو» شرط أساسي من شروط قيادة الصراع الناجح. فهل عرفنا عدونا حقاً بعد مسلسل هزائمنا الطويل؟ وهل اهتمت قيادات العمل الوطني والقومي والأنظمة الحاكمة في وطننا بمعرفة العدو، على حقيقته، وكما هو فعلاً، لا كما تتصور وتريد؟ هل قام المثقفون بدراسة أوضاع العدو وبرامجه دراسة جدية؟ هل تعرفنا على أفكاره وأساليبه ومخططاته؟

لن نكون عادلين ومنصفين إن كان الجواب نفياً مطلقاً. إذ إن هناك مراكز ومؤسسات وشخصيات مهمة بدأت تنشط منذ أوائل الستينات. ولكن ما فعلته وقدمته لا يتناسب إطلاقاً مع ضخامة الخطر العظيم الذي يتهددنا. وستبقى الحاجة ملحة وملحة جداً لنعرف أكثر وندرس أكثر. والأهم من ذلك أن ننقل هذا الوعي بالخطر الصهيوني إلى أوسع الجماهير العربية وفي كل أنحاء الوطن، فلا تبقى المعرفة محصورة بفئة من المثقفين، بل يتوجب النشر والتعميم وعلى أوسع نطاق ممكن، إذ إن «علينا أولاً» - ولنتعلم منهم - «تنوير عقول الناس، ويجب أن تشق الدعوة طريقها إلى أقصى جحر تعيش يقطنه أهلنا».

لقد كتب الكثيرون وترجموا، لكن الملفت أن لا يهتم أحد بكتاب مهم وأساسي من كتب الدعوة الصهيونية هو كتاب «دولة اليهود» الذي ألفه تيودور هرتزل قبل أكثر من مئة سنة. والكتاب، برأي بعض المؤرخين والعديد من الصهاينة، اعتبر «إنجيل الحركة الصهيونية... ودستورها... وحجر الأساس في بناء دولة إسرائيل»، وسمى المتعصبون الصهاينة مؤلف الكتاب إنه «نبي الحركة الصهيونية... والأب التاريخي

والروحي لدولتهم»، وقد نشر الكتاب في ١٨٩٦/٢/١٤ باللغة الألمانية وأحدث إصداره ضجة كبيرة في الأوساط اليهودية الأوروبية فقد كانت هناك ثلاثة تيارات تتجاذبهم:

التيار الأول تمثل بدعاة الاندماج. وكان هؤلاء يرون أن على اليهود أن يخرجوا من معتزلاتهم ـ الغيتو ـ ويمارسوا حقوقهم وواجباتهم كالمواطنين الآخرين، فقد غيّرت الثورة الفرنسية أفكار الشعوب الأوروبية وتبنى الكثيرون من المواطنين شعارات الثورة «الحرية والإخاء والمساواة» ولم تعد الفوارق الدينية سبباً للتفرد والانطواء. وكان لهذا التيار دعاته وأنصاره، وحظي باهتمام الكثيرين من اليهود في أوروبا الغربية خاصة وانتشر في أوساطهم وصار له وزنه الملحوظ.

وكان **التيار الثاني** قوياً نشيطاً في بلدان أوروبا الشرقية وعرف باسم «البوند» وكان ذا توجه اشتراكي وقد انتشر في أوساط العمل والمثقفين اليهود في روسيا القيصرية خاصة. وقد خاض هذا الحزب صراعاً طويلاً ضد اليهود الداعين إلى مغادرة روسيا والهجرة بعيداً عن حكم القيصر. وكان معظم أولئك المهاجرين اليهود من أوروبا الشرقية يتوجهون بشكل أساسي إلى الولايات المتحدة ثم بلدان أميركا اللاتينية وبخاصة الأرجنتين. وواجه «البونديون» حملات الأحزاب الاشتراكية الروسية التي انتقدت الدعوة للتكتل على أساس ديني وليس على أساس وحدة الطبقة العاملة، ومع ذلك فقد لعب هذا التيار دوراً هاماً في الإعداد للثورات والانتفاضات التي شهدتها روسيا القيصرية قبل تولي البلاشفة زمام السلطة في تشرين الثاني ١٩١٧. كذلك كان لهذا التيار تأثيره العميق في نشأة الأحزاب «اليسارية والاشتراكية والعمالية ومستعمرات الكيبوتس» ضمن الحركة الصهيونية وأنصارها ممن هاجروا إلى فلسطين منذ أوائل القرن الحالي.

وتمثل **التيار الثالث** بالصهيونية، أي دعوة الهجرة إلى فلسطين:

«العودة إلى صهيون». ولم يكن هذا التيار قوياً حتى انعقاد «المؤتمر الصهيوني العالمي الأول» في بال - سويسرا - في صيف ١٨٩٧، إذ كانت هناك، قبل انعقاد المؤتمر مجموعات صهيونية صغيرة ناشطة في أوروبا الشرقية كان أبرزها «جماعة محبي صهيون» التي تأسست في أوائل ثمانينات القرن التاسع عشر واهتم أفرادها بالحفاظ على التقاليد والتراث اليهودي وقد أرسلوا مجموعات من المهاجرين إلى فلسطين من يهود أوروبا الشرقية، خاصة من روسيا وبولونيا منذ العقدين الأخيرين من القرن الماضي.

لم تكن هذه التيارات الثلاثة متعاونة أو منسجمة، بل لعلها كانت إلى الخلاف والنزاع أقرب. ولم يكن موقع الصهاينة عالياً في سلم القوى اليهودية الأوروبية الناشطة. ولعلهم كانوا في الدرجة الأدنى من ذلك السلّم. ولكن الأمور تغيرت بعد ظهور هرتزل وكتابه لصالح هذا التيار.

لا تنبع أهمية الكتاب من احتوائه على مادة فكرية جديدة أو متميزة فكرياً. فقد تبنى المؤلف الفكرة الصهيونية «كحركة قومية لإنقاذ اليهود من القمع والاضطهاد وبناء دولة لهم» وهو الموضوع الذي أكثر المفكرون اليهود الأوروبيون من الكتابة عنه مع انتقاد «أعداء السامية» ودورهم في استمرار اضطهادهم واستغلالهم وإذلالهم.

والواقع، أن الفكرة الصهيونية لم تكن جديدة، فهناك كتب عديدة صدرت قبل كتابه، حتى إن هرتزل نفسه قال فيما بعد انه لو عرف بكتابَي «موسى هيس» و «ليو بنسكر» لـمّا كتب كتابه المسمى «دولة اليهود». إذاً، ما هي أهمية كتابه هذا؟ نبعت أهمية الكتاب من انطلاقة الكاتب من الفكرة الصهيونية محدداً هدفها بإقامة «دولة اليهود». ولكن الأهم من مجرد تحديد الهدف أنه طرح تصوراً لوسائل وأساليب الوصول إلى ذلك الهدف، فقد رسم الطريق الموصل رسماً عملياً وجوهرياً، وفيه الكثير من الأفكار العملية بادئاً بوجوب توفير قيادة سياسية ذات مرجعية مقبولة من يهود العالم وقد سماها «جمعية اليهود». وكان رأيه - كما قال

في الفصل الخامس - «إن جمعية اليهود هي نقطة الانطلاق للحركة اليهودية برمّتها التي هي على وشك البدء بالعمل. . . وسيكون لهذه الجمعية مهمات علمية وسياسية». وبعد قرابة ثمانية عشر شهراً من نشر الكتاب اجتمع في سويسرا مندوبون يهود أرسلتهم جالياتهم العديدة وأسسوا «المؤتمر الصهيوني العالمي» الأول، فكان المؤتمر هو القيادة الموجّهة للنشاط الصهيوني وفعالياته المختلفة في العالم. ولكن ذلك وحده ليس كافياً، فقد ارتأى «إنشاء شركة يهودية تكون منتجة اقتصادياً» وقدر أن رأسمالها يجب أن يكون (٥٠) خمسين مليون جنيه استرليني، وهو مبلغ كبير وهائل بمقياس ذلك الزمن. وتحدث عن كيفية توفير هذا المال وفضل أن تكون الشركة مساهمة و«تحت حماية بريطانيا»، وحدد الكثير من واجباتها ومسؤولياتها مؤكداً على أهمية التعاون بين الجمعية (القيادة) والشركة (المسؤولة عن التمويل) وملحّاً على جمع المال كاملاً قبل البدء بالعمل - كما ذكر في الفصل الثالث - وطرح مسائل أساسية يتوجب متابعتها مثل «احتلال الأرض»، الذي يجب أن يتم وفق مبادئ علمية مدروسة وأن تتم تسوية كل شيء يتعلق بالأرض مسبقاً وبشكل نظامي، وأن لا يترك شيء للحظ والصُدفة. واهتم كثيراً بموضوع دستور الدولة الذي أراده أن يكون مرناً؛ وأدرك أهمية اللغة ودورها، خاصة وأن اليهود، بحكم وجودهم في أقطار وبيئات مختلفة يتحدثون بلغات متعددة، ولم تكن «اليديش» - لغة يهود أوروبا الوسطى - معروفة عندهم كلغة قومية واحدة، فيجب - كما ارتأى - أن تدرس مسألة اللغة بشكل عملي ومتزن وموحد. ولم يغب عن فكره قيام المؤسسات الأخرى لإنشاء الدولة كالإسكان والتعليم والتصنيع والزراعة والدفاع والاقتصاد بفروعه. والملفت في كتابه تشديده على أمور حيوية أساسية كالعمل الذي اعتبره «ضرورة ومن يرفض العمل بصفته إنساناً حراً سيرسل إلى الإصلاحيات».
وتوقف عند التثقيف الشعبي وقد مر معنا اهتمامه «بتنوير عقول الناس» وتوصيل المعرفة إلى كافة اليهود مهما كانت منزلتهم ومكانتهم الاجتماعية.

وبالإضافة إلى كل ما ذكر فقد أبدى اهتماماً عقلانياً بالدين اليهودي ورأى فيه نقطة الانطلاق، وإذا كنا «نرتبط معاً بديانة آبائنا وأجدادنا لكن دون أن ينتهي الأمر باليهود إلى حكومة دينية». وكان هرتزل واعياً لخطورة تدخل رجال الدين والعسكريين في الحياة السياسية إذ اننا «سنُبقي الكهنة ضمن حدود المعابد كما سنبقى على جيشنا المحترف ضمن حدود الثكنات. فالجيش والكهنوت سيكونان موضع التكريم الرفيع الذي تستحقه وظائفهما القيّمة. ولكن عليهما عدم التدخل في إدارة الدولة التي تنعم عليهما بالامتياز، وإلا فسوف يصطنعان المشاكل في الداخل والخارج».

ولم يفته عامل الزمن والتغيرات الحاصلة في العالم وموضوع التراث والحياة المعاصرة، إذ أكد أنه «إذا رغبنا بإنشاء دولة اليوم، فعلينا ألا نقوم بذلك بالطريقة التي كانت ستعتبر الطريقة الممكنة الوحيدة قبل ألف عام».

ما كان هرتزل حالماً حين طرح كل الأفكار والطروحات لو لم يدرك كل الإدراك أن تحقيق هذا المشروع لن يتم وأن دعوته لن ترى النور دون تأمين تحالف جاد وعملي مع دول كبيرة، مشيراً إلى أهمية مشروعه ـ «دولة اليهود» ـ بالنسبة لمصالح الدول الأوروبية بل وحتى للسلطنة العثمانية. فقد ذكر، ليلفت أنظار الأوروبيين، أن «دولته» سوف تكون «جزءاً من السور الأوروبي ضد آسيا، ومخفراً أمامياً للحضارة بوجه البربرية. وعلينا، كدولة محايدة، أن نظل على اتصال بأوروبا برمتها. والتي سيكون عليها، أن تضمن وجودنا...» حسب ما جاء في الفصل الثاني في قسم «فلسطين أم الأرجنتين».

وبعد.. فإن هذا الكتاب الصغير الذي نترجمه، ترى المؤسسة في ذلك خطوة صغيرة ومتواضعة جداً لمعرفة هذا العدو وفكره وأساليبه. فمعرفة العدو ضرورة أساسية في الكفاح ضده. وترى ما هو أهم، إذ نجد في صفحاته الكثير مما يتوجب علينا تعلمه من تجربة الحركة الصهيونية. وفي مقدمة العظات والعبر أن نتعلم من الصهاينة مزية الصبر

والجلد. والصبر، الذي ندعو إليه، ليس الصبر الساكن أو العاجز أو المتوكل أو القادر على التحمل وتلقي الضربات والهزائم، بل إن الصبر المطلوب هو الصبر الواعي والفاعل والناشط، إذ «لا يأس مع الحياة»، كما قال مصطفى كامل، من زعماء مصر القدامى. وأن نتعلم أيضاً أهمية التخطيط المسبق والإعداد التفصيلي وقراءة الواقع قراءة موضوعية لنضع برامجنا ومخططاتنا على مراحل بحيث تتوضح فيها الحدود الدنيا والحدود القصوى. وعلينا، مرة أخرى، أن ندرك حقيقة أوضاعنا وجهلنا وتخلفنا فتتوقف قياداتنا الرسمية والشعبية عن خداع الجماهير وتزييف الوقائع في سبيل كسبها للشعبية الرخيصة التي سرعان ما ينكشف أمرها.

والأهم من كل ما تقدم هو أن نتعلم من العدو، ومن تجارب الشعوب الأخرى، ومن خبرات نضال شعبنا أن «الاضطهاد والقمع لا يمكنهما إبادتنا»، وأن الظلم والقهر لن يقضيا على روح المقاومة لدى شعبنا. والأهم الأهم أن نؤمن أن «نزاهة الفكرة وحيوية تنفيذها»، إضافة إلى الصدق والالتزام هي عناصر أساسية لنجاح الكفاح في تحقيق أهداف مشاريع النهضات القومية. فهل تساءلنا عن مدى صلابة هذه العوامل الذاتية وعمقها في نفوسنا، كقيادات وكأفراد مواطنين؟

وتبقى الحقيقة الأرسخ وهي «أن كل شيء في تغير وتحوّل» خاصة إذا كان هناك من يسعى ويقاتل من أجل التغيير. لقد كان الاتحاد السوفياتي لسنوات قليلة ماضية القوة الدولية العظمى الثانية، في معظم مستويات الحياة والقوة والعلوم، فانهار ذلك النظام دون حرب خارجية أو ثورة داخلية. ثم هناك تجربة ثانية هي أن الأوروبيين البيض حكموا جنوب افريقيا وأقاموا نظاماً عنصرياً متحالفاً مع إسرائيل وقوى دولية عظيمة، واستمر حكم أولئك الطغاة العنصريين (٣٤٢) سنة. وسقط نظامهم سقوطاً مدوياً خلال أسابيع قليلة وخرج «ويلسون مانديلا» من السجن ليتولى قيادة أقوى دول القارة الإفريقية وأغناها بعد أن صبر على سجانيه (٢٧) عاماً دون أن يتنازل عن حقوق بلاده. فمن كان يصدق

حصول هذين الحدثين قبل عشر سنوات فقط؟

وكذلك الأمر مع أمتنا العربية، فهي ليست مستثناة من قانون التحول والتغيير. ومن يراجع تاريخ أقطارنا خلال هذا القرن الحالي سيجد كم شهدت بلادنا قوى استعمارية كبيرة كان تصور هزيمتها أو انسحابها، أيام تسلطها، يدخل في باب المستحيلات. ولعل الشاهد الأقرب هو: من كان يتصور قبل عشر سنوات تماماً أن شعبنا الأعزل من كل سلاح والذي أخضعته إسرائيل لاحتلالها الوحشي مدة ثلاثين عاماً سيقدم لشعوب العالم درساً بليغاً بابتداعه أسلوباً جديداً مبتكراً في الكفاح ضد الغزاة كانت الحجارة فيه هي السلاح، والأبطال هم الفتيان والفتيات والشباب والشابات؟ ومن كان يتصور أيضاً أن شعبنا في جنوب لبنان سيبدي كل هذا الصبر الرائع على همجية الصهاينة ووحشيتهم، وأن يقدم مقاتلوه تلك الصورة الرائعة في المقاومة المسلحة في ظل ظروف عربية ودولية بالغة السوء حيث يسود «الصمت»، بل «السبات العربي» والتآمر الدولي؟

إن للحياة قوانينها ومسيرتها، فلم يعرف التاريخ دولة أو قوة عاشت الدهر كله، فلكل منها آجالها ولا بد أن تكون هناك نهاية أو انهيار لكل قوة مهما عظمت. ومستقبل الكيان الصهيوني ومصيره ليس شاذاً، إلا أن ذلك يعتمد، إلى حد كبير، على ما نحققه نحن من تقدم وبناء وعمل.

بيروت آذار/ مارس ١٩٩٧

مؤسسة الأبحاث العربية

استهلال

كتب هرتزل كتابه، «**دولة اليهود**»، في صيف عام ١٨٩٥ في باريس، حيث كان يعمل مراسلاً لجريدة *Neue Freie Presse* وكانت الجريدة الأولى في فيينا. وقد حدته وألهمته كتابة هذا الكتاب ما أثارته محاكمة دريفوس فيه من عواطف وتأملات. كانت تلك المحاكمة قد شقت الشعب الفرنسي إلى معسكرين متعارضين وأثارت استغراب العالم المتحضر بأسره واستقطبت اهتمامه. إن الثورة الفرنسية كانت قد أعطت اليهود، بعد قرن من حدوثها، مساواة مدنية هي جزء من منهاج الثورة المثالي المنادي بـ «الحرية والمساواة والأخوة»، فرأى هرتزل أن اليهود معرضون لخسارة وضعهم، فقاده ذلك إلى إجراء تحليل يستقصي الأسباب الجوهرية للاسامية وإلى استنباط حل للمعضلة اليهودية. وقد وضع هرتزل آراءه في هذا الكتيب الذي شغل باله أسابيع عديدة وملك عليه لبه طوال فترة تأليفه المحمومة.

في نبذةٍ كتبها هرتزل عن تأليف هذا الكتاب قال: «لا أتذكر أنني كتبت أبداً أي شيء آخر بمثل تلك الحمية الذهنية. يقول هاينه إنه سمع جناحي صقرٍ ترفان فوق رأسه حين كتب أشعاراً معينة. أنا كذلك شعرت أنني سمعت رفيفاً مشابهاً فوق رأسي حين كتبت هذا الكتاب. لقد عملت عليه يومياً حد الإنهاك». وكتب في مفكرته اليومية عن تأليفه هذا الكتيب، الذي كتب له أن يصنع تاريخاً، يقول: «أسابيع من إنتاج لا يضاهى لم أعد خلالها قادراً على كتابة أفكاري بسكينة وجلاء. كتبت

ماشياً، واقفاً، ممدداً، كتبت في الشوارع، عند تناول وجبات الطعام، وفي الليل حين كانت الكتابة تؤرقني... أنا أعرف الآن وكنت أعرف أيضاً خلال هذه الفترة العاصفة كلها من الإنتاج أن كثيراً مما سطرته كان مبلبلاً ووهمياً. لكنني لم أمارس النقد الذاتي قط لكي لا أعيق تدفق الأفكار. كنت أقول لنفسي ان الوقت سيحين في ما بعد لأطلق العنان لنقدٍ يوضح الغموض». ثمة أفكار شبيهة بهذه كان قد عبّر عنها مفكرون يهود أوائل في القرن التاسع عشر مثل موسى هيس في كتابه «روما وأورشليم» وليو بنسكر في كتابه «الانعتاق الذاتي»، لكن هرتزل لم يكن قد سمع بهما في ذلك الحين، وعندما عرف بهما قال إنه لو كان يعرف بذلك من قبل ما كتب كتابه المسمى *Judenstaat*.

قدم هرتزل مخطوطة كتابه لصديقٍ قديم له طلباً لرأيه فأعادها هذا إليه وهو يشعر بفزع عميق، فقد خشي أن يكون قد أصيب بلوثة في عقله وتوسل إليه ألاّ ينشر الكتاب. أشار عليه هذا الصديق كذلك أن يعرض المخطوطة على الدكتور ماكس نوردو، وكان شهيراً في التحليل النفسي ومعروفاً كمؤلف أيضاً. وكانت النتيجة أن هذا الطبيب لم يشهد فقط بسلامة عقل هرتزل، بل أعلن كذلك استعداده لمعاونته في المشروع. مع هذا تردد هرتزل في البداية ولم يقدم على نشر الكتيب، وإنما ارتأى أن يوزع المخطوطة بشكل خاص على أصدقائه وعلى آخرين من المهتمين بالمسألة اليهودية. غير أنه ما ان واصل هرتزل مناقشة أفكاره مع الأناس المعنيين، لا سيما بعد عودته إلى فيينا في عام ١٨٩٦، حتى تزايدت حماسته واشتدت جرأته. وقد توصل إلى نتيجة مفادها أن أفضل ما يخدم القضية التي يسعى من أجلها هو أن يعلن مخططه على الملأ، وهكذا تم نشر *Der Judenstaat* في الرابع عشر من شباط/ فبراير ١٨٩٦.

وعلى الفور أثار الكتيب اهتماماً ليس فقط في فيينا وحدها وإنما في أرجاء العالم. فقد جرى نقاش عام للمشكلة اليهودية على مستوى رفيع وجادّ في الأوساط اليهودية وغير اليهودية، كما أن الأفكار

المطروحة أثارت من جهة تعاطفاً ودعماً لدى بعض المحافل، واستفزت من جهة أخرى أشد المعارضة لدى بعضها الآخر. وما ان انطلق هذا الاهتمام العالمي حتى شعر هرتزل أن عليه أن يتخلى عن نيته الأصلية في البقاء سلبياً، شمر عن ساعديه وعقد المؤتمر الصهيوني الأول في بازل في عام ١٨٩٧، وفيه أسس المنظمة الصهيونية. لكنه لم يقدم كتيبه للنظر فيه، لا ولم يشر حتى إشارة واحدة إلى وجوده. على العكس قال في خطابه الافتتاحي: «إن ما كتبه أو قاله أحدٌ منا بشكل فردي يمكن، بل ينبغي، إغفاله، أما ما قد يقرره المؤتمر فلا يمكن إلا الالتزام به». غير أنه كتب في مفكرته، بتاريخ ٣ أيلول/سبتمبر ١٨٩٧: «في بازل أسستُ الدولة اليهودية. ولو أنني قلت هذا اليوم لواجهتني ضجة من الضحك. وسيراها الجميع ربما في مدة خمس سنين، وبالتأكيد في مدة خمسين سنة. إن الدولة قد تأسست من حيث الجوهر، في إرادة شعب الدولة». وأصدر المؤتمر قراراً حدد فيه هدف الصهيونية، في برنامج بازل المعروف، كما يلي: «إن هدف الصهيونية هو أن يتحقق للشعب اليهودي وطن في فلسطين يضمن وجوده قانون عام». هذا ولم ينظر في الكتيب أي مؤتمر صهيوني لاحق سواءً في حياة هرتزل أو بعد مماته. غير أنه، كعملٍ أدبي أدى مباشرةً إلى بدء حقبة جديدة في التاريخ اليهودي الحديث، يحظى وسيظل يحظى بمكان دائم في عواطف القوميين اليهود جميعاً لما ينطوي عليه من مثلٍ أعلى هو مصدر للإلهام. إنه سِفر صهيوني ذو قيمة لا تقدر بثمن.

إن هذه الطبعة الانكليزية الجديدة لـ *Der Judenstaat*، التي قورنت بعناية مع النص الألماني، إنما تظهر عشية الذكرى الخمسين لنشر الكتيب الأصلي، في وقتٍ تتطلب فيه الظروف تحقيق غرضه الأساسي. إن مرور نصف قرن على نشره قد صاحبه تغير كبير ومتعدد الجوانب في حياة الشعب اليهودي وكذلك في شؤون العالم بوجه عام، وليس هناك جانب من جوانب ذلك التغيير قد اتسم بتقدم يدعو إلى الاعتزاز كالجانب

الذي يمثل السعي لتحقيق الفكرة المهيمنة التي يضمها هذا الكتاب، ألا وهي أن الشدائد المادية والمعنوية التي يعانيها الشعب اليهودي لا يمكن وضع حدٍ لها إلا بوقوف الشعب على قدميه على أساس قومي في أرض تعود له. إن الذين يقرأون صفحات الكتاب أول مرة قد يظنون أن مقدمته إنما كتبت بالأمس فقط، ذلك أن تحليلها للوضع اليهودي في الشتات جاء صحيحاً جداً ومعبراً جداً، ولو أن هذا الوضع قد شهد تغييرات ماحقة في أوروبا. أما الذين يقرأونها مرة أخرى بعد انصرام السنين فسيندهشون من البصيرة وبعد النظر اللذين يتجليان في معالجتها للمسألة اليهودية ويقفون خاشعين أمام ذكرى كاتبها الخالد.

إسرائيل كوهين

تقديم

إن الفكرة التي طورتُها في هذا الكتيب هي فكرة قديمة جداً: إنها استعادة «دولة اليهود».

العالم يجأر بالصياح ضد اليهود، وهذا الصياح قد أيقظ الفكرة الوسنانة.

إني أرغب في أن يكون مفهوماً منذ البداية أنه ليس هناك جزء ـ واحد ـ من مقولتي يقوم على اكتشاف جديد. إني لم أكتشف لا الحالة التاريخية لليهود ولا وسائل تحسينها. وفي واقع الأمر سيرى كل إنسان بنفسه أن مواد الهيكل الذي أصححه موجودة حقاً، بل هي جاهزة فعلياً للتسليم. لذا فلئن أريد لهذه المحاولة لحل المسألة اليهودية أن توصف بكلمة واحدة فلتكن «التجميع» وليس «النزوة»، التي هي من نزوات الهوى والخيال بالتأكيد.

قبل بضع سنين ظهر كتاب طريف عنوانه *Freiland* كتبه الدكتور تيودور هيرتزكا ولعله يضع حداً فاصلاً بين المفهوم الذي أحمله والمفهوم الطوباوي. في هذا الكتاب اختراع رائع لتفكير من صنع عصري متشرب بمبادئ الاقتصاد السياسي وهو بعيد عن الواقع بعد الجبل الاستوائي الذي تقع فيه دولة حلمه. إن «أرض الحرية» هي آلية معقدة ذات عجلات تمسك فيها أسنان الدواليب سناً بسِنّ، لكن ليس هناك ما يثبت أن من الممكن جعلها تتحرك. وحتى لو افترضنا أن «مجتمعات أرض الحرية»

ستكون ذات يوم في حيز الوجود، فإني لا أرى في الأمر كله سوى نكتة مضحكة.

أما مخططي الحالي فيضم استخدام قوة دافعة قائمة. وبالنظر إلى قصوري الذاتي فسأكتفي بالإشارة إلى الأسنان والعجلات في الآلة التي ستصنع، معوّلاً على فنيين أكثر مهارةً مني لتركيبها.

إن كل شيء يعتمد على قوتنا الدافعة. فما هي قوتنا الدافعة؟ إنها بؤس اليهود.

ومن يجرؤ على إنكار وجوده؟ سنبحث هذا بالتفصيل في الفصل الخاص بأسباب اللاسامية.

إن الجميع على اطلاع بظاهرة قوة البخار التي يولدها الماء المغلي فيرفع الغطاء عن إبريق الشاي. ومثل هذا محاولات الصهاينة وجمعياتهم الرامية إلى إيقاف اللاسامية عند حد.

وإني لأجزم أن هذه القوة، إذا استخدمت بشكل صحيح، هي من القدرة بما يكفي لتحريك ماكنة كبيرة لنقل الركاب والسلع: فشكل الماكنة هو ذلك الشكل الذي يختاره لها الناس.

أنا على قناعة تامة بأنني على صواب، وإن كنت لا أدري هل سأعيش لأرى إثبات ذلك. إن أولئك الذين هم أول من يدشن هذه الحركة لن يعيشوا ليروا نهايتها المظفرة. غير أن في تدشينها ما يكفي لإعطائهم شعوراً بالفخر، وكذلك بالجذل النابع من حرية الروح.

لن أطنب في إيراد أوصاف لمشروعي منمقةً تنميقاً فنياً خشية اتهامي بأني أرسم صورة لمدينة طوباوية. وأتوقع، على أية حال، أن يقدم الساخرون الأغبياء بتشويه مخططي وجعله على صورة كاريكاتورية وذلك في محاولة منهم لإيهان تأثيره. لقد شرحت مخططي ليهودي لا يخلو من ذكاء في الأمور الأخرى، فكان من رأيه «أن المدينة الطوباوية هي مشروع

تقدم تفاصيله المستقبلية وكأنها موجودة فعلاً». هذه فكرة خاطئة. إن وزير الخزانة يلجأ في تقدير موازنته إلى أرقام افتراضية ولا يعتمد في حساباته على تلك الأرقام فقط التي تستند على متوسط العائدات لسنين ماضية، أو على إيرادات سابقة في دول أخرى، بل يعتمد أحياناً على أرقام لا سابقة لها، مثلاً عند فرض ضريبة جديدة. إن الذي يدرس ميزانيةً ما يعرف أن الأمر هو كذلك. لكن حتى لو كان معروفاً أن التقديرات لن يجري التمسك بها حرفياً فهل يعتبر قانون الميزانية طوباوياً؟

غير أنني أتوقع الكثير من قرائي. أنا أطلب من المثقفين الذين أخاطبهم أن يطرحوا جانباً عدداً من الأفكار التي تصوروها مسبقاً. بل سأذهب حتى إلى أبعد من ذلك فأطلب من اليهود الذين حاولوا بمنتهى الجد أن يضعوا حلاً للمسألة اليهودية أن ينظروا إلى محاولاتهم السابقة على أنها محاولات خاطئة ولا جدوى منها.

إن علي أن أحترس من خطرٍ بعينه عند عرض فكرتي. فإذا وصفت ظروف المستقبل بحذر شديد فسأبدو وكأنني أشك بإمكانية حدوثها. أما إذا أعلنت تحققها بثقة كبيرة فسأبدو وكأنني أصف حلماً لا سبيل إلى تحقيقه.

لذلك أريد أن أبين بجلاء وقطعية أنني مؤمن بالنتيجة العملية لمخططي وإن كنت لا أستطيع القول انني اكتشفت الشكل الذي سيتخذه في نهاية المطاف. إن الدولة اليهودية أمر جوهري للعالم، لذلك فإنها ستتأسس.

إن المخطط سيبدو بالطبع منافياً للعقل إذا تصدى له فرد واحد بمفرده، أما إذا تعاون عليه عدد من اليهود فسيبدو عقلانياً تماماً ولن يلاقي تحقيقه صعوبات تذكر. إن الفكرة تعتمد فقط على عدد مؤيديها. ولعل شبابنا الطموح الذي تغلق بوجهه الآن دروب التقدم كلها سيعمل على الدعوة للفكرة وهو يرى في هذه الدولة اليهودية أفقاً براقاً من آفاق

الحرية والسعادة والشرف.

إني أشعر بأن مهمتي تكون قد انتهت بنشر هذا الكتيب. ولن أحمل قلمي مرة أخرى إلا إذا دفعتني إلى ذلك هجمات يشنها المعادون من ذوي الشأن، أو إذا أصبح من الضروري مواجهة اعتراضات غير متوقعة أو القيام بإزالة الأخطاء.

هل أنني أسرد ما لا ينطبق على الحال الآن؟ هل أنني سابق لزمني؟ هل أن معاناة اليهود ليست خطيرة بعد بما يكفي؟ سوف نرى.

لذا سيتوقف الأمر على اليهود أنفسهم وهل سيظل هذا الكتيب السياسي في الوقت الحاضر من قبيل الرومانسي السياسي. ولئن كان الجيل الحاضر أغبى من أن يفهمه فهماً صحيحاً، فإن جيلاً آخر أفضل وأرقى سينشأ لكي يفهمه. إن اليهود الذين يرغبون بدولة لهم سيحصلون عليها وسيستحقونها.

تيودور هرتزل

أولاً: المقدمة

من الغريب أن العديد من الناشطين في الحياة لا يملكون إلا القليل من الإدراك لعلم الاقتصاد. لذا نجد حتى اليهود يكررون بإخلاص مقولة اللاساميين التالية: «إننا نعتمد في إعالتنا على الدول المضيفة لنا، ولولاها لمتنا جوعاً». إن هذا يدل على مدى ما تفعله الاتهامات الظالمة في إضعاف معرفتنا بأنفسنا. لكن ما هي الأسس الحقيقية لهذا القول بشأن الدول التي تقوم مقام «دول مضيفة»؟ إن لم يكن أساسه آراء فيزيوقراطية(*) محدودة فإن أساسه ذلك الخطأ الصبياني القائل بأن السلع تنتقل من يدٍ إلى يد بتداول مستمر. ولسنا بحاجة إلى أن نفيق من غفوة طويلة، كما أفاق ريب فان وينكل Rip van Winkle، لكي ندرك أن العالم قد تغير كثيراً بفعل إنتاج سلع جديدة. إن التقدم الفني الذي جرى خلال هذا العصر الرائع يمكن حتى الشخص المحدود الذكاء جداً أن يلاحظ بعينيه الكليلتين ظهور السلع الجديدة في كل مكان من حوله. إن روح المبادرة والإقدام هي التي خلقت هذه السلع.

إن العمل بلا إقدام هو العمل الساكن الذي كان سائداً في الأزمان القديمة، ويتمثل أحسن تمثيل بعمل المزارع الذي لم يزل يراوح في المكان الذي كان فيه أجداده منذ ألف عام. إن رفاهنا المادي كله هو ثمرة رجال

(*) الفيزيوقراطية مذهب في الاقتصاد السياسي نشأ في فرنسا في القرن الثامن عشر وقال أصحابه بحرية الصناعة والتجارة وبأن الأرض هي مصدر الثروة كلها (قاموس المورد).

يتحلون بالإقدام. إننا حتى لو كنا أمة فانية، كما يحلو للغير أن يطلقوا مثل هذه المبالغات بشأننا، فإن علينا ألا نتطلب من أمة أخرى أن تمضي في العيش، وأكاد أشعر بالخجل لإبداء هذه الملاحظة المبتذلة. إننا لا نعتمد فقط على تداول السلع القديمة لأننا ننتج سلعاً جديدة.

إن عندنا عبيداً لديهم قوة خارقة على العمل وقد أودى ظهورهم في العالم بإنتاج السلع اليدوية، وهؤلاء العبيد هم المكائن. صحيح أن من الضروري وجود العمال لتشغيل المكائن، لكن هناك من أمثال هؤلاء وفرة كبيرة. أما الادعاء بأن اليهود هم إما لا يصلحون للقيام بالعمل اليدوي أو غير مستعدين للقيام به فهو لا يصدر إلا عمن يجهل حال اليهودي في عدد من أقطار أوروبا الشرقية.

لا أريد أن أستميت في الدفاع عن اليهود في هذا الكتيب. سيكون ذلك أمراً لا طائل تحته. إن كل ما يمكن أن يقال من الأمور العقلانية والعاطفية في الدفاع عنهم قد قيل من قبل. فإذا كان السامعون غير قادرين على إدراك ما يقال لهم يكون كلام من يعظهم صيحةً في واد. أما إذا كان السامعون من ذوي العقول المفتوحة والمدركة فيكون الوعظ لا ضرورة له. إني أؤمن بصعود الإنسان إلى درجات أعلى فأعلى من الحضارة، لكني أرى أن هذا الصعود بطيء جداً. وإذا كان علينا أن ننتظر حتى تصبح الإنسانية ميالة للخير كما انتظر ليسنغ Lessing حين كتب كتابه **ناثان الحكيم** *Nathan the Wise* فلننتظر إذن إلى ما لا نهاية. لكن روح العالم تسارع إلى إسعافنا بطريقة أخرى.

لقد قدم هذا القرن إلى العالم نهضة رائعة من خلال إنجازاته الفنية، لكن وفي الوقت ذاته لم توضع التحسينات الخارقة التي أتى بها في خدمة الإنسانية. لم تعد المسافة عقبة كأداء، مع هذا فإننا نشكو من ضيق المكان. إن بواخرنا العظيمة تحملنا بسرعة واطمئنان إلى بحار لم تكن معروفة، وسككنا الحديد تحملنا بسلامة إلى جبال كانت حتى الآن لا

تسلقها إلا الأقدام تسلقاً محفوفاً بالرعب. والأحداث التي تقع في أقطار لم تكن مكتشفة حين زجت أوروبا باليهود في الغيتوات صارت تعرف لنا في بحر ساعة واحدة. لذا فإن بؤس اليهود أمر يحدث في غير زمنه الصحيح ـ لا لأن حقبة من التنوير قد حدثت منذ مئة عام، فذلك التنوير لم يصل في واقع الأمر إلا إلى صفوة مختارة من الناس.

فلأقل إذن إن نور الكهرباء لم يخترع لإضاءة الصالونات في بيوت قلة من ذوي الكبرياء الزائف بل بالأحرى لإلقاء الضوء على بعض المشاكل الداكنة التي تعانيها الإنسانية. من هذه المشاكل المسألة اليهودية. إننا في سعينا لحلها لا نعمل فقط من أجل أنفسنا، وإنما من أجل كثيرين آخرين أيضاً من الكائنات المضطهدة والمثقلة بالهموم.

لم تزل المسألة اليهودية قائمة، ومن السخف إنكار ذلك. إنها من بقايا العصور الوسطى التي لم تستطع الأمم المتمدنة التخلص منها. لقد أظهرت بالتأكيد رغبة كريمة في القيام بذلك حين قامت بتحريرنا من العبودية. إن المسألة اليهودية تكون موجودة أينما وجد اليهود بأعداد ملموسة. أما في الأمكنة التي لا تكون موجودة فيها فإن اليهود يحملونها إليها عند هجرتهم إليها. إننا بالطبع نذهب إلى الأمكنة التي لا نضطهد فيها، وهناك يؤدي وجودنا إلى الاضطهاد. هذا هو الحال، وسيظل كذلك، في الأقطار كلها، حتى المتمدنة جداً منها كفرنسا، إلى أن تجد المسألة اليهودية حلاً لها على أساس سياسي. هاهم اليهود سيئو الطالع يحملون اللاسامية الآن إلى انكلترا مثلما حملوها من قبل إلى أمريكا.

أظن أنني أفهم اللاسامية، وهي في واقع الأمر حركة معقدة جداً. وأنا أنظر إليها من وجهة نظر يهودية، إنما بلا خوف أو كراهية. وأعتقد أن بوسعي أن أرى ما فيها من عناصر السخرية الغليظة، والغيرة المعهودة في التجارة، والتحامل المتوارث وعدم التسامح الديني، وكذلك الدفاع المزعوم عن النفس. وأرى أن المسألة اليهودية هي مسألة دينية أكثر منها

اجتماعية وإن كانت تتخذ أحياناً هذا اللبوس أو ذاك أو غيرهما من الأشكال. إنها مسألة قومية لا يمكن حلها إلا بجعلها مسألة سياسية عالمية تبحثها وتسويها الأمم المتحضرة في منتدى العالم.

إننا شعب من الشعوب ـ شعب واحد

لقد سعينا بإخلاص في كل مكان لكي نندمج في الحياة الاجتماعية للمجتمعات المحيطة بنا وللمحافظة فقط على ديانة آبائنا وأجدادنا. ولا يباح لنا أن نفعل ذلك. عبثاً نكون وطنيين أوفياء، وولاؤنا للوطن هنا أو هناك يذهب إلى الحدود القصوى؛ عبثاً نقدم التضحيات نفسها في الأرواح والأموال التي يقدمها إخواننا أبناء البلد؛ عبثاً نجهد في إعلان شأن بلادنا في العلوم والفنون، أو في إنماء ثروتها بأعمال المقايضة والتجارة. إننا لم نزل، في أقطار عشنا فيها قروناً، ينتقص من قدرنا على أننا غرباء، ويجري هذا في الغالب من قبل الذين لم يستوطن أسلافهم البلاد التي شقي فيها اليهود أصلاً وخبروا المعاناة. إن للأغلبية أن تقرر من هم الغرباء. ذلك أن هذه هي مسألة قوة، شأنها شأن أي أمر ينشأ في العلاقات بين الأمم. إني هنا لا أتنازل عن أي جزء من حقنا المكتسب بالتقادم عندما أقول قولي هذا بصفتي الشخصية كفرد. وفي عالم كعالمنا اليوم، وكما سيكون عليه إلى ما لا نهاية، تأتي القوة قبل الحق. لذا فإن من العبث بالنسبة إلينا أن نكون وطنيين مخلصين، كما كان البروتستانت الفرنسيون الذين أجبروا على الهجرة والرحيل. آه لو أننا نترك وشأننا بسلام. . . .

ولا أظن أننا سنترك وشأننا بسلام

إن الاضطهاد والقمع لا يمكنهما إبادتنا. ما من أمة في الأرض صمدت بوجه الصراعات والآلام كما صمدنا. إن تعذيب اليهود لم يفعل سوى الكشف عن الضعفاء بيننا، أما الأقوياء منا فكانوا أهلاً لانتمائهم

إلى عرقهم حين كان الاضطهاد يندلع ضدهم. كان هذا الموقف على أشدّ ما يكون وضوحاً في الفترة التي أعقبت مباشرة تحرير اليهود من العبودية. وقد فقد اليهود المتقدمون فكرياً ومادياً شعورهم بالانتماء إلى عرقهم. وفي الأمكنة التي دام فيها حسن حالنا السياسي طويلاً اندمجنا مع محيطنا، وما هذا بالأمر المستهجن. لذا فإن على السياسي الذي يرغب في أن يرى عترة يهودية في أمته أن يعمل على إدامة حسن حالنا السياسي؛ وهذا ما لا يستطيع فعله سياسي حتى من نوع بسمارك.

ذلك أن التحيز القديم ضدنا لم يزل عميق الغور في قلوب الناس، وما على الذي يريد برهاناً على ذلك إلا أن يصغي لما يقال بصراحة وبساطة من أمثال وحكايات هي كلها مناهضة للسامية. إن الأمة هي طفل كبير حيثما تكون، ومن الممكن بالتأكيد تثقيفها، لكن هذا يستغرق وقتاً طويلاً في أحسن الظروف فيما يمكننا، كما ذكرنا آنفاً، أن نزيل صعوباتنا بطرق أخرى قبل إنجاز عملية التثقيف بوقت طويل.

أما اندماج اليهود، ولا أعني به مجرد الامتثال الخارجي لمقتضيات الملبس والعادات والأعراف واللغة، بل أعني به كذلك التماثل في الشعور والسلوك، فلا يمكن أن يتم إلا بالزواج من أتباع الديانات الأخرى. لكن الحاجة إلى زيجات مختلطة لا تتحقق إلا إذا شعرت بها الأغلبية، أما مجرد اعتراف القانون بهذه الزيجات فلا يكفي بالتأكيد.

وقد ارتكب الأحرار المجريون، الذين أسبغوا الشرعية لتوهم على الزيجات المختلطة، خطأً كبيراً كما يتضح بجلاء من إحدى الحالات الأولى، فقد تزوج يهودي متنصر من يهودية وأبرز السعي من أجل الحصول على صيغة هذا الزواج الفروق بين أتباع الديانتين اليهودية والمسيحية، الأمر الذي أعاق انصهار الأجناس بدلاً من الإعانة عليه.

لن يكون بوسع الذين يرغبون حقاً باختفاء اليهود من خلال الاختلاط المتبادل مع الأمم الأخرى أن يروا ذلك وقد تحقق إلا بطريقة

واحدة. فعلى اليهود أن يكتسبوا مقدماً قوة اقتصادية كبيرة كافية للتغلب على التحيز الاجتماعي القديم الموجه ضدهم. وقد يضرب بالأرستقراطية مثلاً على ذلك إذ يحدث في صفوفها أكبر الأعداد من الزيجات المختلطة بالقياس الى الفئات الأخرى من اليهود. إن الأسر اليهودية التي أعادت لطبقة النبلاء القديمة بهاءها بأموال أبنائها أخذت تُستوعب بالتدريج. لكن ما الشكل الذي ستتخذه هذه الظاهرة في الطبقات الوسطى (فاليهود من البرجوازية) التي تتركز فيها المسألة اليهودية بشكل رئيسي؟ إن اكتساباً مسبقاً للقوة سيكون مرادفاً لتلك السيادة الاقتصادية التي يرمى بها اليهود خطأً. ولئن كانت القوة التي يملكونها الآن تثير حنق اللاساميين واستنكارهم فما الذي ستثيره الزيادة في هذه القوة؟ لذا فلن تتخذ على الإطلاق الخطوة الأولى نحو الاستيعاب، لأن هذه الخطوة ستنطوي على إخضاع الأغلبية إلى أقلية محتقرة حتى الآن، لا تمتلك لا القوة العسكرية ولا القوة الإدارية. لذا أرى أن من غير المحتمل أن يتم استيعاب اليهود عن طريق رخائهم. ويصح هذا الرأي في الأقطار المناهضة للسامية الآن. أما في الأقطار الأخرى التي يشعر فيها اليهود بالارتياح في الوقت الحاضر فسيجري الاعتراض على الاستيعاب بعنف. ولن يصدقني السعداء من إخواني في الدين حتى يعلمهم تعذيب اليهود الحقيقة، فطالما ظلت اللاسامية هاجعة يكون اندلاعها أشد شراسة. إن تغلغل اليهود المهاجرين الذين تجتذبهم بلدان يسود في ظاهرها الأمن، وارتقاء اليهود من سكان هذه البلدان الأصليين في السلم الاجتماعي، عاملان يجتمعان بقوة لتحقيق ثورة. ليس هناك ما هو أوضح من هذا الاستنتاج العقلاني.

وبما أنني توصلت إلى هذه النتيجة غير ملتفت أبداً إلا إلى البحث عن الحقيقة فلسوف يعارضني اليهود الذين هم في ظروف سهلة. أما الخطر المحيق بالمصالح الشخصية وحدها العائدة لذوي النفوس القلقة أو الجبانة فهو خطر يمكن تجاهله باطمئنان، ذلك أن هموم الفقراء والمضطهدين أهم بكثير من مشاغلهم. على أني أريد منذ البداية أن أحول

دون نشوء أي فهم خاطئ بأن مشروعي سيؤدي، إذا تحقق، إلى الإضرار بأية درجة كانت، بما يمتلكه اليهود الآن. لذا فإني سأوضح بالتفصيل كل شيء يتعلق بحقوق الملكية. هذا، وإذا ظلت خطتي عبارة عن عمل أدبي لا أكثر فإن الأمور ستظل كما هي عليه.

والأكثر احتمالاً أن يقع اعتراض مفاده أنني أقدّم ممسكاً للاسامية حين أقول إننا شعب، وشعب واحد، وانني أعيق اندماج اليهود في الأمكنة التي يوشك أن يتحقق فيها، وأعرّض هذا الاندماج للخطر في الأمكنة التي تحقق فيها، هذا إن كان بوسع كاتب وحيد أن يعيق أي شيء أو يعرضه للخطر.

إن هذا الاعتراض سيقع في فرنسا على الأخص، وقد يقع في أقطار أخرى أيضاً، لكني سأتولى مقدماً الإجابة فقط على اليهود الفرنسيين، إذ يتمثل فيهم المثل الصارخ للنقطة التي أنا بصددها.

إني، مهما يكن مقدار عبادتي للشخصية ـ الشخصية الفردية القوية في رجال السياسة أو المخترعين أو الفنانين أو الفلاسفة أو قادة الجيوش، ومهما يكن مقدار عبادتي للشخصية الجماعية لجماعة تاريخية من الكائنات الإنسانية نسميها أمة ـ لا آسف على اختفائها. إن من يريد أن يهلك فيزول فليهلك. لكن القومية المتميزة لليهود لا ولن تدمر. وهي لا يمكن تدميرها لأن الأعداء الخارجيين يرسخونها. إنها لن تدمر، كما اتضح خلال ألفي عام من الشقاء المريع. وهي يجب ألا تدمر، وأنا أحاول مرة أخرى، بصفتي خليفة العدد العديد من اليهود الذين رفضوا الاختفاء، أن أثبت هذا في هذا الكتيب. إن أغصاناً كثيرة من شجرة اليهودية قد تذوي وتسقط، أما الجذع فيبقى.

لذا، فلئن احتج اليهود الفرنسيون كلهم أو بعضهم على هذا المخطط بحجة اعتزازهم بما جرى لهم من «استيعاب»، فإن جوابي بسيط: إن الأمر كله ليس من شأنهم على الإطلاق. إنهم فرنسيون يهود،

حسناً! إن هذا شأن خاص لليهود وحدهم.

إن الحركة نحو تنظيم الدولة التي أقترحها لن تضر، بطبيعة الحال، الفرنسيين اليهود ولا «المستَوعبين» في الأقطار الأخرى. على العكس إنها ستنفعهم بلا ريب. ذلك أن أحداً لن يزعجهم في «وظيفتهم اللونية،» على حد تعبير داروين، بل سيتمكنون من الاستيعاب بسلام، لأن اللاسامية الحالية ستتوقف إلى الأبد. وسيسجل لهم بالتأكيد أنهم استُوعبوا حد الأعماق الروحية إذا ظلوا حيث هم بعد أن تصبح «دولة اليهود» الجديدة واقعاً حقيقياً بمؤسساتها الأرقى من مؤسسات الدول الأخرى.

و«المستوعَبون» سينتفعون حتى أكثر من المواطنين المسيحيين بمغادرة اليهود المؤمنين، لأنهم سيتخلصون من المنافسة المزعجة، الكثيرة جداً، التي لا مناص منها، لطبقة العمال اليهود الذين تسوقهم الفاقة والضغط السياسي من مكان إلى مكان ومن بلد إلى بلد. إن هذه الطبقة العمالية العائمة ستصبح ثابتة. عندئذٍ يستطيع العديد من المواطنين المسيحيين ـ الذين نسميهم لاساميين ـ أن يقوموا بمقاومة ذات عزم ضد هجرة اليهود الأجانب. ولا يستطيع المواطنون اليهود القيام بذلك، ولو أنها أكثر تأثيراً فيهم، فالمنافسة الشديدة تفعل فعلها بهم قبل غيرهم حين تأتي من أفراد يعملون في حقول صناعية مشابهة، ويقومون بالإضافة إلى ذلك بإدخال اللاسامية حيث لا تكون موجودة، أو تعزيز شوكتها حيث تكون موجودة. إن «المستوعَبين» يعبرون عن هذه المظلمة السرية بأعمال «خيرية»، فهم يقومون بتأسيس جمعيات الهجرة لليهود التائهين. إن الصورة المضحكة تنقلب إلى ضدها إذا لم تتعامل مع الكائنات الإنسانية. ذلك أن بعض هذه المؤسسات الخيرية إنما يجري إنشاؤها لا من أجل اليهود المضطهدين بل ضدهم، وهي قد تأسست للتخلص من هؤلاء البؤساء بأسرع ما يمكن وإرسالهم إلى أبعد ما يمكن. وهكذا يتضح أن عدداً من الأصدقاء الظاهريين لليهود هم عند الاستقصاء الدقيق ليسوا إلا لاساميين من أصل يهودي وقد تنكروا بلباس المحسنين.

لكن محاولات الاستيطان، حتى التي قام بها الأخيار، لم تكن ناجحة رغم أنها كانت مثيرة للاهتمام. ولا أظن أن أحداً منهم كان قد تناول الأمر من قبيل التسلية أو انهمك بمسألة هجرة اليهود الفقراء كما ينهمك البعض بسباق الخيل. إن المسألة أخطر من هذا بكثير وأشد مأساوية. كانت المحاولات مثيرة للاهتمام لأنها كانت تمثل، على نطاق ضيق، الرجال الأوائل العمليين من حملة فكرة «دولة اليهود». هذا وكانت المحاولات مفيدة أيضاً، إذ إن من الجائز الحصول على خبرة من الأخطاء التي ارتكبت بحيث يجري القيام بمحاولات ناجحة على نطاق واسع. لكنها، بالطبع، أضرت كذلك. إن نقل اللاسامية إلى مناطق جديدة، وهو نتيجة حتمية لمثل هذا التغلغل المصطنع، هو بنظري أهون الشرين. والأسوأ من ذلك أن تؤدي النتائج غير المرضية إلى إثارة الشكوك حول النفع من المادة البشرية اليهودية. لكن الحجة البسيطة التالية ستزيل الشك من أذهان الأذكياء. إن الأمر غير العملي أو المستحيل التحقيق على نطاق ضيق لا يكون بالضرورة كذلك على نطاق أوسع. إن مشروعاً صغيراً قد يؤدي إلى خسارة، في حين أن مشروعاً كبيراً يعمل في الظروف ذاتها يكون مربحاً. فالغدير الذي لا تستطيع حتى الزوارق أن تمخر فيه يصب في نهر يحمل في ما يحمله البواخر المهيبة المصنوعة من الحديد.

ليس هناك كائن إنساني يملك من الثروة أو القوة ما يكفي لقلع أمة من هذا الموطن وإعادة زرعها في ذاك. الفكرة وحدها هي التي تحيط بذلك، وقد يكون لفكرة الدولة هذه القوة المطلوبة للقيام بذلك. وقد ساور اليهود هذا الحلم الجليل على مدى الليالي الطويلة لتاريخهم. وتعودنا منذ القدم أن نردد: «في أورشليم في العام القادم». والمسألة الآن هي أن نثبت أن من الممكن تحويل الحلم إلى واقع معاش.

ومن أجل هذا يجب أولاً إزالة العديد من التصورات القديمة، البالية، المشوشة والضيقة من الأذهان إزالة تامة. إن الأدمغة الكليلة قد تتصور مثلاً أن هذا الخروج سيكون من مناطق متحضرة إلى الصحراء.

والأمر ليس كذلك. إن الخروج سيتم ونحن في وسط الحضارة. إننا لن نتراجع إلى صعيد أدنى بل سنرتقي إلى آخر أسمى منه. إننا لن نسكن في أكواخ من طين بل سنبني بيوتاً جديدة أجمل من بيوتنا ونتملكها ونحن نشعر بالأمن والاطمئنان. إننا لن نخسر ممتلكاتنا المكتسبة بل سنبقي عليها. ولن نتنازل عن حقوقنا التي كان استحقاقنا لها بجدارة إلا من أجل حقوق أحسن منها. إننا لن نضحي بأعرافنا العزيزة علينا، إذ سنجدها مرة أخرى. ولن نترك بيوتنا القديمة قبل أن تهيأ لنا بيوت جديدة. أما الذين سيغادرون فهم أولئك الذين يثقون بأنهم بمغادرتهم سيحسنون أوضاعهم، وأول من سيغادر هم اليائسون الآن، يليهم الفقراء، ثم الميسورون وأخيراً الأغنياء. والذين سيذهبون أولاً سيرفعون أنفسهم إلى مقام أعلى، يضاهي المقام العالي للميسورين والأغنياء الذين سيتبعونهم. لذا فإن الخروج سيكون في الوقت نفسه ارتقاءً للطبقات.

إن مغادرة اليهود لن تنطوي على اضطرابات اقتصادية أو أزمات أو أعمال قمعية؛ وواقع الأمر أن الأقطار التي سيهجرونها ستنتعش وتقبل على مرحلة جديدة من الرخاء. ستكون هناك هجرة داخلية من المواطنين المسيحيين إلى المواقع التي يخليها اليهود. إن تيار الخروج سيكون تدريجياً من دون أي اضطراب وستضع حركته الأولية حداً نهائياً للاسامية. وسيغادر اليهود بصفتهم أصدقاء معززين، وإذا عاد بعضهم فسيلقون الترحيب ذاته في الأمم المتحضرة كالذي يلقاه الزوار الأجانب. إن خروجهم لن يكون مشابهاً للفرار، لأنه سيكون حركة منظمة جيداً تحت سيطرة الرأي العام. والحركة لن تدشن فقط بالامتثال المطلق للقانون، كما لن يكون من الممكن تنفيذها من دون التعاون الودي للحكومات المعنية التي ستحصل على منافع كثيرة منها.

ولضمان نزاهة الفكرة وحيوية تنفيذها ستؤسس هيئة تدعى «جمعية اليهود» بالإضافة إلى إنشاء شركة يهودية تكون منتجة اقتصادياً.

أما إذا حاول فرد واحد أن يتولى هذه المهمة الضخمة بمفرده فهو إما دجال أو مجنون. إن شخصيات الأعضاء الذين تتألف منهم الهيئة المقترحة ستضمن نزاهتها، كما أن رأسمال الشركة المقترحة الكافي سيحقق استقرارها.

إن هذه الملاحظات التمهيدية لا ترمي إلا إلى إعطاء جواب عاجل لمجموعة الاعتراضات التي تثيرها بالتأكيد كلمتا «دولة اليهود» بالذات. لذلك فإننا سنمضي بتؤدة للإجابة عن الاعتراضات الأخرى ولكي نشرح بالتفصيل ما أشرنا إليه آنفاً إشارة عابرة؛ كما سنحاول تحاشي جعل هذا الكتيب عرضاً كئيباً تحقيقاً للفائدة المتوخاة منه. لذا فإن خير ما يحقق هذا الغرض هو كتابة فصول قصيرة تضم حقائق الأمور باقتضاب.

إني إذا أردت تشييد بناية جديدة تحل محل البناية القديمة فعلي أن أهدم قبل أن أبني. لهذا فلسوف أحافظ على هذا التسلسل الطبيعي. سأقوم، في القسم الأول والعام، بشرح أفكاري وإزالة التحيز بأشكاله كلها وبتقرير الشروط السياسية والاقتصادية الأساسية وتطوير الخطة.

أما في القسم الخاص، الذي ينقسم إلى ثلاثة مباحث رئيسية، فسأقوم بوصف تنفيذ الخطة. وهذه المباحث الثلاثة هي: الشركة اليهودية، والجماعات المحلية، وجمعية اليهود. إن الجمعية تؤسس أولاً، أما الشركة فتؤسس آخراً، ولو أن الأفضل هو العكس لأن سلامة الوضع المالي للمشروع هي التي ستثير التساؤل فيتوجب إزالة الشكوك حولها أولاً.

سأحاول في الخاتمة أن أجيب على أي اعتراض آخر قد يطرأ. وآمل أن يتابعني قرائي اليهود بصبر حتى النهاية. وسيذكر البعض بالطبع الاعتراضات التي لديه بتسلسل يختلف عن تسلسل الرد عليها ودحضها، لكن على الذي يشعر بزوال شكوكه أن يقدم ولاءه للقضية.

ومع أني أنطلق في كلامي من العقل، لكني أدرك تماماً أن العقل

وحده لن يكفي. إن السجناء القدامى لا يتركون زنزانتهم باختيارهم. ولسوف نرى هل الشباب الذين نحتاج إليهم هم بإمرتنا - الشباب الذين يستمدون ما لديهم من الشيوخ بشكل لا يقاوم فيحملونهم قدماً على أذرع قوية ويحوّلون الدوافع العقلانية إلى حماسة.

ثانياً: المسألة اليهودية

إن خطورة وضع اليهود أمر ليس من الممكن لأحدٍ إنكاره. إنهم، حيثما يعيشون بأعدادٍ محسوسة، يتعرضون للاضطهاد بدرجات مختلفة. ومساواتهم أمام القانون التي يمنحها الدستور أصبحت نصاً ميتاً من الناحية العملية. إنهم يحرمون من إشغال المراكز الرفيعة نسبياً سواءً في الجيش أو في المسالك الأخرى. وتجري محاولات لإيقاع الإفلاس بهم: «لا تشتروا من اليهود!».

أما الهجمات في البرلمانات والمجالس والصحف والكنائس والشوارع، وعند القيام بالرحلات ـ مثلاً، استبعادهم من فنادق معينة ـ فهي هجمات أضحت، حتى في أماكن التسلية والترويح عن النفس، متزايدة يومياً: وشكل الاضطهاد يختلف باختلاف الأقطار والدوائر الاجتماعية التي يحدث فيها. ففي روسيا تفرض الضرائب على القرى اليهودية؛ وفي رومانيا قضي على بضعة أشخاص بالموت؛ وفي ألمانيا يتعرضون للضرب المبرح بين حين وحين؛ وفي النمسا يمارس اللاساميون الإرهاب على الحياة العامة برمتها؛ وفي الجزائر ثمة مثيرون للشعور العام يتنقلون من مكان إلى مكان؛ وفي باريس تغلق بوجه اليهود أبواب المجتمع الراقي كما يسمونه ويستبعدون من النوادي. إن ألوان المشاعر المناهضة لليهود متعددة. وليست هذه الأقوال محاولة لتقديم أصناف كئيبة من الشدائد التي يعانيها اليهود؛ إن من العبث الوقوف طويلاً عند التفاصيل مهما تكن أليمة.

إني لا أنوي إثارة التعاطف نحونا، فهذا أمر سخيف ولا طائل من ورائه وينافي الكرامة. إنما أكتفي بتوجيه الأسئلة التالية إلى اليهود: هل صحيح، في الأقطار التي نعيش فيها بأعداد محسوسة، أن أوضاع اليهود من رجال قانون وأطباء وعمال فنيين ومدرسين ومستخدمين من شتى الأنواع هي أوضاع تزداد سوءاً يوماً بعد يوم بشكل لا يطاق؟ هل صحيح أن الطبقات الوسطى اليهودية مهددة بشكل جدي؟ هل صحيح أن مشاعر الرعاع تثار ضد الأغنياء منا؟ هل صحيح أن فقراءنا يعانون من البؤس أكثر مما يعانيه فقراء الطبقات العاملة الأخرى؟

وأظن أن هذا الضغط الخارجي يشعر به الجميع في كل مكان. إنه يسبب عدم الارتياح في طبقاتنا العليا اقتصادياً، وقلقاً مستمراً وعميقاً في طبقاتنا الوسطى وقنوطاً مطبقاً في طبقاتنا الدنيا.

إن هذا في واقع الأمر يقود إلى نتيجة واحدة بعينها تعبر عنها بوضوح الجملة المأثورة التي تتردد في برلين: «أخرجوا أيها اليهود!».

سأطرح الآن المسألة اليهودية باقتضاب شديد جداً: هل علينا أن «نخرج» الآن؟ وإذا كان الجواب بالإيجاب، فإلى أين؟ أم أن لنا أن نبقى؟ وفي هذه الحالة، إلى متى؟

فلننته أولاً من مسألة البقاء حيث نحن. هل يمكننا أن نرجو أياماً أفضل؟ هل يمكننا أن نصبر وتصابر؟ هل يمكننا أن نروض أنفسنا ونصانع الأمور بورع إلى أن يحين الوقت الذي يصبح فيه أمراء هذه الأرض وشعوبها أكثر ميلاً نحونا بشكل رحيم؟ أنا أقول اننا لا أمل لنا في تغيير مجرى المشاعر. ولِمَ لا؟ إننا حتى لو كنا قريبين من قلوب الأمراء قرب رعاياهم منها فإنهم لا يستطيعون حمايتنا. إنهم إنما سيغذون الكراهية الشعبية لليهود بإظهارهم رعايتنا أكثر مما ينبغي. وأعني بعبارة «أكثر مما ينبغي»، في واقع الأمر، أقل مما يعتبره المواطن العادي، أو الجنس من أي نوع كان، حقاً له. إن الأمم التي يعيش بين ظهرانيها

اليهود هي كلها لاسامية إما بشكل خفي أو بشكل صريح.

ليس لدى الناس الاعتياديين أي إدراك تاريخي، لا بل هم غير قادرين عليه. إنهم لا يعرفون أن آثام العصور الوسطى أخذت تغزو الآن الأمم الأوروبية. إننا قوم من صنع الغيتو. ولا شك أننا برزنا في حقل المال لأن ظروف العصور الوسطى ساقتنا إلى ذلك سوقاً. ويجري الآن تكرار هذه العملية ذاتها. إننا نضطر الآن مرة أخرى إلى التوجه نحو حقل المال، وهو اليوم البورصة، لأننا نستبعد من ميادين النشاط الاقتصادي كلها. وبما أننا في البورصة فإننا نتعرض من جديد للازدراء. في الوقت ذاته نستمر في إنتاج وفرة من العقول عادية الكفاءة لا تجد لها منفذاً، وهذا يعرض مركزنا الاجتماعي للخطر بقدر ما تفعله ثروتنا المتزايدة. إن اليهود المثقفين الذين لا يملكون وسائل العيش يصبحون اشتراكيين بسرعة في هذه الأيام. لذا فإننا بالتأكيد سنقاسي كثيراً في الصراع بين الطبقات لأننا نقف في وضع مكشوف جداً في المعسكرين معاً، معسكر الاشتراكيين ومعسكر الرأسماليين.

محاولات سابقة للعثور على حل

إن الوسائل المصطنعة المستخدمة حتى الآن للتغلب على المتاعب التي يعانيها اليهود كانت إما تافهة ـ كمحاولات الاستيطان ـ أو خاطئة من حيث المبدأ ـ كمحاولات تحويل اليهود إلى فلاحين في أوطانهم الحالية ـ.

ما الذي حققه نقل بضعة آلاف من اليهود إلى قطر آخر؟ إن هؤلاء إما أخفقوا في الحال، أو ازدهرت أحوالهم ومن ثم خلق ازدهارهم اللاسامية. كنا قد ناقشنا سابقاً هذه المحاولات الرامية إلى نقل فقراء اليهود إلى مناطق جديدة، فوجدناها غير كافية تماماً ولا جدوى منها إن لم تكن في واقع الأمر مدعاة للقضاء على غرضها بالذات؛ ذلك أنها تؤجل الحل فقط وتماطل فيه، بل لعلها تعمل على تفاقم الصعوبات القائمة.

إن الذي يحاول تحويل اليهودي إلى مزارع يرتكب خطأ فادحاً. ذلك أن الفلاح إنما هو كائن في صنف تاريخي بعينه كما يدل على ذلك لباسه الذي ارتداه في بعض الأقطار قروناً طويلة، وأدواته التي يستعملها وهي مماثلة تماماً للأدوات التي كان يستعملها أجداده القدامى. إن محراثه لم يتغير، وهو يحمل بذوره في ذيل ردائه، ويحصد بمنجله الذي تجاوزه الزمن، ويدرس الحنطة بالمِدرَس اليدوي الخالد. لكننا نعرف أن كل هذا يمكن عمله بالماكنة. إن أمريكا يجب أن تكتسح أوروبا بالطريقة ذاتها التي استوعبت بها ملكيات الأرض الكبيرة الملكيات الصغيرة. بالتالي فإن الفلاح هو طراز يوشك على الانقراض. وحين يتم الحفاظ عليه بشكل مصطنع فإنما يجري ذلك لحساب المصالح السياسية التي ينوي هو خدمتها. إن من الخطل، بل من المستحيل، أن نخلق فلاحين عصريين من فلاحي النمط القديم. ما من أحد هو من الثروة أو القوة بما يكفي لجعل الحضارة تتخذ خطوة واحدة متقهقرة إلى الوراء. إن مجرد الحفاظ على مؤسسات بالية هو مهمة من الصعوبة بحيث يتطلب تنفيذ الإجراءات التعسفية كلها لدولة أوتوقراطية.

فهل نحن نسجل لليهود، وهم أذكياء، فضل الرغبة بأن يصبحوا فلاحين من الطراز القديم؟ وقد يقول قائل لهم: «خذوا هذه النبال واذهبوا بها إلى الحرب!» ماذا؟ إلى الحرب بالنبال لقتال الآخرين الذين يحملون البنادق ويتسلحون بالمدافع؟ في مثل هذه الظروف يكون اليهود على حق إذا رفضوا أن يحركوا ساكناً حين يحاول الناس جعلهم فلاحين. إن القوس والنبال سلاح جميل توحي لي بمشاعر الكدر حين استسلم للحزن، لكن مكانها اللائق بها هو المتحف.

هذا، وهناك بالتأكيد مناطق يخرج إليها اليهود اليائسون لحرث التربة فيها، أو يكونون مستعدين على أية حال للخروج إليها. إن ملاحظة بسيطة تظهر أن هذه المناطق ـ مثل الجيب المسمى هيس في ألمانيا، أو بعض الأقاليم في روسيا ـ هي بالذات المواطن الرئيسية للاسامية.

إن مصلحي العالم الذين يرسلون اليهود إلى المزارع لحرثها ينسون شخصاً مهماً جداً لديه الكثير مما يقوله عن الأمر، وهو المزارع، والمزارع على حق أيضاً. ذلك أن الضريبة المفروضة على الأرض والمخاطر المحيطة بالمحاصيل والضغط الذي يمارسه كبار الملاك للحصول على عمالة رخيصة والمنافسة الأمريكية على وجه الخصوص، كل هذا يجعل حياة المزارع شاقة وعسيرة. يضاف إلى هذا أن الرسوم المفروضة على الذرة لا يمكن أن تستمر بالارتفاع إلى ما لا نهاية. كما لا يمكن أيضاً السماح بأن يموت المزارع جوعاً. إن نفوذه السياسي آخذ، في واقع الحال، بالتصاعد، لذا لا بد من معاملته برعاية كبيرة.

هذه الصعوبات جميعها معروفة جيداً، لذا أشير إليها إشارة عابرة. ولا أريد إلا مجرد الإشارة بشكل واضح إلى مدى عدم الجدوى من المحاولات الماضية لحل المسألة اليهودية، وكانت في معظمها محاولات ترمي إلى الخير. إن تحويل مجرى التيار أو الكبت المصطنع للمستوى الفكري لطبقتنا العاملة لن يتغلب على الصعوبة القائمة. وقد تناولنا سلفاً وسيلة الاستيعاب التي يفترض فيها أنها معصومة عن الخطأ.

إننا لا يمكننا أن نهزم اللاسامية بأية طريقة من هذه الطرق. إنها لا يمكن أن تزول طالما كانت أسبابها غير زائلة. فهل هي أسباب قابلة للإزالة؟

أسباب اللاسامية

لن نتطرق مرةً أخرى إلى الأسباب التي هي نتيجة المزاج والتحامل وضيق الأفق، وإنما سنتقيد بالأسباب السياسية والاقتصادية وحدها. يجب ألا نخلط بين اللاسامية الحديثة والاضطهاد الديني لليهود في الأزمان الماضية. إنها تأخذ أحياناً انحيازاً دينياً في بعض الأقطار لكن الاتجاه الرئيسي لهذه الحركة العدوانية قد تغير الآن. ففي الأقطار الرئيسية التي تسود فيها اللاسامية يجري هذا نتيجة تحرير اليهود من العبودية.

وحين تستيقظ الأمم المتحضرة فترى عدم الإنسانية في التمييز الذي يقوم به التشريع ضدنا فإنها تحررنا من القيود المفروضة علينا ولكن تحريرنا هذا جاء متأخراً جداً. لم يعد من الممكن قانونياً إزالة عوائقنا في أوطاننا القديمة. ذلك أننا إنما تطورنا ونحن في الغيتو إلى شعب بورجوازي، ولما خرجنا من ذلك الغيتو دخلنا في منافسة ضارية مع الطبقات الوسطى. وهكذا جاء تحريرنا من العبودية ليضعنا فجأةً داخل دائرة الطبقة الوسطى هذه، حيث صرنا نخضع لضغط مزدوج، من الداخل ومن الخارج. إن البورجوازية المسيحية لن تكون مستعدة لرمينا ضحية للاشتراكية، ولو أن ذلك لن يحسن الأمور كثيراً.

في الوقت ذاته، فإن الحقوق المتساوية لليهود أمام القانون لا يمكن سحبها بعد أن يتم إقرارها. والسبب في ذلك هو أن سحبها سيكون مناقضاً لروح العصر، ولأنه سيدفع أيضاً باليهود فوراً، غنيهم وفقيرهم على السواء، إلى صفوف الأحزاب الهدامة. ما من شيء ذي أثر يمكن فعله حقاً لإيذائنا. في الأيام الخالية صودرت مجوهراتنا. فكيف يتم وضع اليد على أموالنا المنقولة اليوم؟ إنها تتألف من أوراق مطبوعة حفظت هنا أو هناك في أنحاء العالم، وربما تكون محفوظة في خزائن المسيحيين. من الممكن بالطبع الوصول إلى الأسهم والسندات في شركات سكك الحديد والبنوك والمشاريع الصناعية المختلفة وذلك عن طريق فرض الضرائب، أما عند فرض ضريبة دخل تصاعدية فإنها يمكن أن تطال أموالنا المنقولة كلها في نهاية المطاف. لكن هذه المساعي جميعها لا يمكن توجيهها ضد اليهود وحدهم، كما أن من شأنها أن تؤدي أينما حدثت إلى أزمات اقتصادية حادة لا تقتصر آثارها على اليهود فقط وإن كان هؤلاء أول من يتأثر بها. إن استحالة النيل من اليهود تغذي الكراهية الحقودة الموجهة ضدهم. إن اللاسامية تتزايد يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة في أوساط الأمم، ولا بد لها أن تتزايد لأن أسباب نموها مستمرة في الوجود وليس من الممكن إزالتها. إن سببها القديم هو خسارتنا للقدرة على الاستيعاب في القرون

الوسطى، أما سببها الحالي فهو إنتاجنا المفرط للعقول العادية التي لا تجد لها منفذاً، صعوداً أو هبوطاً، وأعني منفذاً مفيداً في هذا الاتجاه أو ذاك. إننا عندما نغرق نصبح طبقة عاملة ثورية وتوابع للأحزاب الثورية كلها، أما عندما نرتقي صعداً فتتصاعد معنا كذلك القوة الرهيبة لمحفظة النقود.

آثار اللاسامية

إن الاضطهاد الذي نعانيه لا يحسّن منا، ذلك أننا لسنا أفضل من الناس العاديين ولو بمقدار ذرة واحدة. صحيح أننا لا نحب أعداءنا، ولن يجرؤ إلا الذي يناقض نفسه على رمينا بهذه النقيصة. إن الاضطهاد يخلق بطبيعة الحال عداوة ضد المضطهدين فتتفاقم عداوتنا هذه من الضغط. ومن المستحيل التخلص من هذه الدورة الأزلية.

سيقول بعض الحالمين الأرقاء القلوب: «كلا! إن هذا التخلص ممكن! وهو ممكن ببلوغ الإنسانية حد الكمال النهائي».

هل يجدر بنا أن نشير إلى الحماقة العاطفية لهذا الرأي؟ إن الذي يجد أملاً في تحسن الأحوال على أساس بلوغ الإنسانية حد الكمال النهائي إنما يرسم صورة للمدينة الفاضلة الطوباوية!

أشرت سابقاً إلى «استيعابنا»، ولا أعني بهذا على الإطلاق أنني أرغب بمثل هذه النهاية. إن شخصيتنا القومية مشهورة في التاريخ، وعلى الرغم مما لحقها من حطٍ من مقامها فهي أروع من أن تتمنى الإبادة. لعلنا نتمكن من دمج أنفسنا كلياً بالأقوام المحيطة بنا إذا تركنا هؤلاء بسلام على مدى جيلين اثنين. لكنهم لن يتركونا بسلام. إنهم يتحملوننا فترة قصيرة ثم تندلع عداوتهم مرة أخرى. إن رخاءنا يستفز العالم على نحوٍ ما لأنه تعارف على مدى قرون على اعتبارنا الأحقر بين الفقراء. والعالم السادر بجهله وضيق صدره لا يدرك أن الرخاء يوهن يهوديتنا ويلغي خصائصنا. إن الضغط وحده هو الذي يعيدنا بالقوة إلى الجذع الأم، والكراهية

وحدها تجعلنا وهي تحيط بنا غرباء مرة أخرى.

لهذا، وسواءً شئنا أو أبينا، فإننا كنا وسنظل جماعة تاريخية ذات خصائص واضحة نشترك بها جميعاً.

إننا شعب واحد ـ لقد جعلتنا أعداؤنا شعباً واحداً على الرغم منا، كما يحدث في التاريخ مراراً وتكراراً. إن المحنة تشد بعضنا إلى بعض فتوحدنا، وفجأةً نكتشف قوتنا. أجل، إننا أقوياء بما يكفي لتشكيل دولة، بل دولة نموذجية. إننا نملك الموارد البشرية والمادية كلها الضرورية لهذا الغرض.

لعل من الضروري الآن سرد تفاصيل ما نقصده من جملة «المادة البشرية» التي ذكرناها سابقاً بشكل غير محدد. إلا أن تقدير ذلك لن يتم حتى تحدد الخطوط العريضة للخطة التي يتوقف عليها كل شيء.

الخطة

إن الخطة بأسرها بسيطة في جوهرها للغاية، ويجب أن تكون كذلك بالضرورة إذا أريد لها أن يدرك فحواها الجميع.

فلتمنح لنا السيادة على جزء من هذا الكوكب يكفي لتلبية المتطلبات العادلة لأمةٍ ما؛ أما الباقي فسنتدبر أمره بأنفسنا.

إن إنشاء دولة جديدة لا هو بالأمر السخيف ولا هو بالمستحيل. ولقد شهدنا في زماننا ما يجري في أمم لا تتكون في جلها من طبقات وسطى، بل هي أفقر وأقل ثقافة، وبالتالي أضعف، منا. إن حكومات الأقطار كلها المبتَلاة باللاسامية ستهتم كثيراً بمساعدتنا للحصول على السيادة التي نريد.

والخطة، وهي بسيطة في تصميمها لكنها معقدة في التنفيذ، ستتولاها وكالتان: **جمعية اليهود والشركة اليهودية**. وستقوم الجمعية

بالأعمال التحضيرية في ميدان العلم والسياسة، ثم تقوم الشركة في ما بعد بالتطبيق العملي لها.

إن الشركة اليهودية ستأخذ على عاتقها تحقيق مصالح العمل لمن يغادر من اليهود وستقوم بتنظيم التجارة والمبادلات في القطر الجديد.

علينا ألا نتصور مغادرة اليهود بغتةً. إنها ستكون مغادرة تدريجية، متواصلة، وستستغرق عقوداً عديدة من الزمن. وسيذهب الأناس الأفقر حالاً في البداية لزراعة الأرض. إنهم سيقومون، وفق خطة منسقة مسبقاً، بشق الطرق وبناء الجسور وسكك الحديد ومنشآت البرق، ويتولون تنظيم الأنهار وكذلك بناء مستوطناتهم؛ إن عملهم سيخلق تجارة، والتجارة ستخلق أسواقاً، والأسواق ستجتذب مستوطنين جدداً، ذلك أن المرء سيذهب طوعاً، وعلى نفقته متحملاً ما في ذهابه من مجازفة، إن العمل الذي يبذل على الأرض سيرفع قيمتها، وسيدرك اليهود سريعاً أن مجالاً جديداً ودائماً للعمل أخذ ينفتح هنا من أجل روح الإقدام والمبادرة وهي الروح التي لاقت حتى الآن الكراهية والطعن.

إذا رغبنا بإنشاء دولةٍ اليوم فعلينا ألا نقوم بذلك بالطريقة التي كانت ستعتبر الطريقة الممكنة الوحيدة قبل ألف عام. ومن الحماقة أن نعود إلى المراحل القديمة للحضارة كما يرغب بذلك العديد من الصهاينة. فلنفرض مثلاً أننا نريد تطهير قطرٍ ما من الوحوش البرية فعلينا ألا نتصدى لهذه المهمة على شاكلة الأوروبيين في القرن الخامس. ينبغي ألا يحمل أحدنا حربةً ورمحاً فيخرج بمفرده في تعقّب الدببة، وإنما علينا أن ننظم فريقاً كبيراً للصيد يكون مفعماً بالنشاط ليقوم باستدراج الحيوانات وجمعها ثم إلقاء قنبلة شديدة التفجير عليها.

وإذا رغبنا بالقيام بعمليات بناء فعلينا ألا نضع أعداداً كثيرة جداً من الأوتاد والركائز على شاطئ بحيرةٍ ما بل علينا أن نبني كما يبني الناس الآن. لا بل إننا سنبني بأسلوب أجرأ وأكثر هيبة من الأسلوب الذي كان

متبعاً في السابق، ذلك أننا نملك الآن وسائل لم تكن بعد في متناول البشر.

إن المهاجرين من الفئة الدنيا في السلم الاقتصادي سيتبعهم ببطء آخرون من درجات أعلى. أما الذين سيذهبون أولاً فهم الذين يعيشون في الوقت الحاضر بيأس مطبق، وستقودهم العقول العادية التي ننتجها بوفرة بالغة والتي تضطهد في كل مكان.

سيفتح هذا الكتيب نقاشاً عاماً عن المسألة اليهودية، لكن هذا لا يعني إجراء تصويت عليه. إن مثل هذا سيدمر القضية منذ البداية، ويجب على المخالفين أن يتذكروا أن الولاء أو المعارضة أمر طوعي كلياً. والذي لن يأتي معنا له أن يبقى في الخلف. فليقف جميع المستعدين للانضمام إلينا وراء رايتنا للنضال من أجل قضيتنا بالصوت والقلم والفعل.

إن اليهود الذين يوافقون على فكرتنا الخاصة بالدولة سيلتحقون بالجمعية التي ستخول بالتداول' والتعامل مع الحكومات باسم شعبنا. ستكون الجمعية بذلك، في علاقاتها مع الحكومات، معترفاً بها كسلطة لخلق الدولة. وهذا الاعتراف سيخلق الدولة عملياً.

ما إن تعلن الدولة عن استعدادها للقبول بسيادتنا على قطعة محايدة من الأرض حتى تدخل الجمعية في مفاوضات من أجل امتلاك هذه الأرض. وثمة مكانان يدخلان في الاعتبار في هذا الصدد: **فلسطين والأرجنتين**. لقد جرت في كلا القطرين تجارب مهمة في الاستيطان، ولو أنها كانت على أساس المبدأ الخاطئ القائل بالاستيعاب التدريجي لليهود. ولا بد للاستيعاب أن ينتهي بشكل سيئ. إنه سيستمر إلى حين حلول اللحظة المحتومة حين يشعر أهالي البلاد بتعرضهم للخطر فيجبروا حكومتهم على إيقاف تدفق اليهود. بالتالي فإن الهجرة لا طائل وراءها إلا إذا قامت على أساس تفوق مضمون.

ستتعامل جمعية اليهود مع سادة البلاد الحاليين وتضع نفسها تحت

حماية الدول الأوروبية إذا كان موقفها ودياً نحو الخطة. إن بوسعنا أن نقدم منافع عديدة للمالكين الحاليين للأرض بأن نأخذ على عاتقنا جزءاً من الدين العام، وأن نشق طرقاً جديدة لأغراض المرور ووجودنا في القطر يجعل ذلك ضرورياً، إلى غير ذلك. إن تأسيسنا لدولتنا سيكون نافعاً للأقطار المجاورة لأن زراعة قطعة من الأرض تزيد من قيمة المناطق المحيطة بها بطرق متعددة.

فلسطين أم الأرجنتين؟

هل نختار فلسطين أم الأرجنتين؟ إننا سنأخذ ما يعطى لنا وما يختاره الرأي العام اليهودي. والجمعية هي التي ستنظر في هاتين النقطتين وتقرر بشأنهما.

إن أراضي الأرجنتين من أخصب أراضي العالم ومساحتها شاسعة وعدد سكانها قليل ومناخها معتدل. وستحصل جمهورية الأرجنتين على مربح كبير إذا اقتطعت لنا جزءاً من أرضها. إن تغلغل اليهود الحالي قد أحدث بالتأكيد تذمراً، وسيكون من الضروري تنوير الجمهورية عن الفارق الحقيقي الذي تتحلى به حركتنا الجديدة.

أما فلسطين فهي وطننا التاريخي الذي لن ينسى أبداً. إن اسم فلسطين وحده سيجتذب شعبنا إليها بقوة ذات فعالية رائعة. وإذا فرضنا أن جلالة السلطان سيعطينا فلسطين فسنستطيع في المقابل أن نتولى إدارة المالية التركية بأسرها. وعلينا أن نشكل هناك جزءاً من السور الأوروبي ضد آسيا ومخفراً أمامياً للحضارة بوجه البربرية. وعلينا كدولة محايدة أن نظل على اتصال بأوروبا برمتها والتي سيكون عليها أن تضمن وجودنا. وستتم حماية الحُرُم المقدسة للمسيحية وذلك بمنحها مركزاً خاصاً خارج نطاق التشريع الوطني، وهو المركز المعروف في قانون الأمم. وعلينا أن نشكل حرس شرف لهذه الحرم فنقوم بأداء هذا الواجب الذي نكون مسؤولين عنه دفاعاً عن وجودنا. إن حرس الشرف هذا سيكون رمزاً

عظيماً لحل المسألة اليهودية بعد ثمانية عشر قرناً من الشقاء اليهودي.

الطلب، الواسطة، التجارة

قلت آنفاً «إن الشركة اليهودية ستنظم التجارة والتبادل في القطر الجديد.» وسأقدم هنا بضع ملاحظات عن هذه النقطة.

إن مخططاً كمخططي يتعرض بشكل كبير للخطر إذا عارضه «العمليون». وهؤلاء هم عادةً ليسوا أكثر من أناس غاصوا في أخدود الروتين اليومي فلا يستطيعون فكاكاً من أسر الحلقة الضيقة للأفكار البالية. غير أن رأيهم المعاكس له في الوقت ذاته وزن كبير وقد يحدث ضرراً كبيراً بأي مشروع جديد، وفي الأقل إلى حين صيرورة هذا الشيء الجديد قوياً بما يكفي لإلقاء «العمليين» ومفاهيمهم العتيقة أدراج الرياح.

في الأيام الأولى لإنشاء خطوط السكك الحديد في أوروبا رأى بعض «العمليين» أن من الحماقة بناء خطوط معينة «لعدم وجود العدد الكافي من الركاب». إن هؤلاء لم يفطنوا إلى الحقيقة التي أصبحت واضحة لنا الآن، وهي أن المسافرين لا يخلقون سكك الحديد بل العكس، إذ إن سكك الحديد هي التي تأتي بالمسافرين، والطلب المستتر هو بالطبع من المسلمات.

إن استحالة الإدراك لكيفية خلق التجارة والتبادل في قطر جديد يكتسب بعد، أمر شبيه بشكوك «العمليين» بشأن الحاجة إلى سكك الحديد. قد يعبر الشخص «العملي» عن نفسه على النحو التالي:

«نسلم بأن الوضع الحاضر لليهود في أمكنة متعددة هو وضع لا يطاق ويتفاقم يوماً بعد يوم؛ نسلم بوجود رغبة في الهجرة؛ نسلم حتى بأن اليهود يهاجرون فعلاً إلى القطر الجديد؛ كيف سيكسبون رزقهم، وما الذي سيكسبونه؟ وبماذا سيسدون رمقهم حين يكونون هناك؟ إن أعمال العديد من الناس لا يمكن تنظيمها بشكل مصطنع في يوم واحد.»

وأجيب عن هذا كما يلي: ليست لدينا أية نية لتنظيم التجارة بشكل مصطنع، وينبغي بالتأكيد ألا نحاول القيام بذلك في يوم واحد. هذا، ومع أن تنظيمها قد يكون مستحي، إلا أن تشجيعها ليس كذلك. فكيف يتم هذا التشجيع؟ بواسطة وجود طلب. وعند تحقق الطلب وواسطته ستثبت التجارة أقدامها.

فإذا كان هناك طلب حقيقي وجدّي في أوساط اليهود على تحسين مركزهم، وإذا كانت الواسطة التي ستخلق، أي الشركة اليهودية، قوية بما فيه الكفاية، فإن التجارة ستنتشر بشكل واسع في القطر الجديد. إن هذا بالطبع هو افتراض، كما كان تطوير سكك الحديد في الثلاثينيات افتراضاً. غير أن السكك قد ابتنيت على أية حال، فأفكار البشر تأخذهم لحسن الحظ إلى أبعد من شكوك «العمليين» وعرباتهم ذات العجلات.

ثالثاً: الشركة اليهودية

موجز

تكون الشركة اليهودية أشبه شيء بشركة أراضٍ كبرى. إنها قد تدعى شركة مرخصة يهودية ولو أنها لا تستطيع أن تمارس سلطة السيادة ولها مهمات أخرى غير مهمات الاستيطان المحض.

ستؤسس الشركة اليهودية باعتبارها شركة محاصّة تخضع للاختصاص الإنكليزي وتشكل وفق القوانين الانكليزية وتكون تحت حماية انكلترا. وسيكون مركزها الرئيسي في لندن. ولا أستطيع أن أقول كم سيكون رأسمال الشركة، تاركاً ذلك لحسابات رجال المال. ولتحاشي الالتباس أقول إن رأس المال هو ألف مليون مارك (نحو خمسين مليون جنيه استرليني)، وقد يكون أكثر من ذلك أو أقل. أما شكل الاكتتاب الذي سيتقرر بعدئذٍ فسيحدِّد نسبة ما يدفع مقدماً.

إن الشركة اليهودية هي منظمة ذات طبيعة انتقالية، وهي تحديداً مشروع أعمال، ويجب التمييز بدقة بينها وبين جمعية اليهود.

وستهتم الشركة اليهودية أولاً وقبل كل شيء بتحويل عقارات المغادرين من اليهود إلى نقد. والطريقة التي ستتبع ستحول دون حدوث أزمات وتضمن أملاك الجميع وتسهل الهجرة الداخلية للمواطنين المسيحيين التي أشير إليها سابقاً.

السلع غير المنقولة

وهذه السلع هي البيوت المملوكة والعقارات والأراضي وعلاقات الأعمال المحلية. في البداية لا تتولى الشركة اليهودية سوى المفاوضات الضرورية لإجراء بيع هذه السلع. وستتم هذه البيوعات اليهودية في بادئ الأمر بحرية ومن دون حصول هبوط كبير في الأسعار. وستكون فروع الشركة في المدن المختلفة بمثابة مكاتب مركزية لبيع عقارات اليهود وستتقاضى عمولات قليلة على الصفقات لضمان استقرارها المالي.

هذا، وإن تطور هذه الحركة قد يسبب هبوطاً كبيراً في أسعار الأراضي وقد يجعل من المستحيل في النهاية إيجاد سوق لها. في هذه الحالة ستتولى الشركة وظيفة أخرى وهي إدارة الأراضي المتروكة إلى حين بيعها بأعلى سعر ممكن. إنها ستجبي بدلات الإيجار من البيوت المؤجرة، وتؤجر الأراضي، وتعين مدراء للأعمال ويكون هؤلاء من المستأجرين أنفسهم كلما أمكن ذلك، وذلك حرصاً على الرقابة. وستسعى الشركة إلى تسهيل تمليك الأراضي لمستأجريها وهم مسيحيون. لا بل إنها ستعين موظفين مسيحيين في فروعها الأوروبية ليحلوا بالتدريج محل موظفيها وسيكونون من المحامين وغيرهم، ولن يصبح هؤلاء بأي شكل من الأشكال خدماً لليهود وإنما المقصود أن يكونوا بمثابة هيئات رقابة حرة للشعب المسيحي حتى يمكن تنفيذ كل شيء بمساواة وإنصاف وعدالة ومن دون تعريض الرفاه الداخلي للناس إلى الخطر.

في الوقت ذاته ستقوم الشركة ببيع العقارات والأراضي أو بالأحرى مقايضتها. ستعرض الشركة لقاء الدار داراً في القطر الجديد، ولقاء الأرض أرضاً في القطر الجديد، أي نقل كل شيء إن أمكن إلى التربة الجديدة كما كان حاله في القطر القديم. إن هذا سيكون مصدراً كبيراً معروفاً لربح تجنيه الشركة. «هناك» ستكون البيوت المعروضة للمقايضة بيوتاً أحدث وأجمل ومزودة بمعدات لتوفير الراحة على نحو أفضل من سابقاتها، كما ستكون الأراضي المعروضة ذات قيمة أكبر من تلك

المتروكة، غير أنها ستكلف الشركة أقل نسبياً لأنها تكون قد اشترت الأرض بسعر زهيد جداً.

شراء الأرض

إن الأرض التي ستكون جمعية اليهود قد حصلت عليها بموجب القانون الدولي يجب بطبيعة الحال اكتسابها من قبل الأفراد

أما الترتيبات التي يجريها الأفراد من أجل استيطانهم فلا تدخل ضمن هذا السرد العام. لكن الشركة تتطلب قطعة كبيرة من الأرض لحاجاتها وحاجاتنا، وعليها أن تحصل عليها بالشراء المركزي. إنها ستتفاوض بالدرجة الأولى من أجل اكتساب ميادين مالية بغرض امتلاك هذه الأرض «هناك» من دون دفع أسعار مرتفعة جداً، وهي في الوقت ذاته تبيع هنا من دون القبول بأسعار منخفضة جداً. ولا ينبغي التخوف من حصول فرض للأسعار لأن قيمة الأرض ستحددها الشركة من خلال تنظيمها للاستيطان بالاشتراك مع جمعية اليهود التي تزاول الإشراف والرقابة. إن هذه الجمعية ستسعى ألا يصبح المشروع مثل قناة پناما وإنما مثل قنال السويس.

ستبيع الشركة لموظفيها مواقع لبناء مساكنهم بأسعار زهيدة، وتتيح لهم رهن هذه المواقع من أجل البناء المقصود، وتستقطع المبالغ المترتبة عليهم من رواتبهم، أو تسجلها لحسابهم كتعويض إضافي. سيكون هذا نوعاً من التعويض عن خدماتهم بالإضافة إلى كونه من قبيل التكريم الذي يتوقعونه.

إن الأرباح الطائلة التي تدرها هذه المضاربة في الأراضي ستكون كلها من نصيب الشركة، إذ لابد لها أن تحصل على هذه المكافأة غير المحدودة لقاء تحملها مخاطرة القيام بالمشروع. فالعادة الجارية تقضي أنه كلما انطوى مشروع ما على مجازفة تكون الأرباح من حق الذين وقعت

المجازفة على عاتقهم. هذا ولا يتاح جني أرباح أخرى تحت أي ظرف آخر من الظروف. إن الأخلاق المالية تكمن في العلاقة المتبادلة بين المخاطرة والربح.

المباني

ستقوم الشركة إذن بمقايضة المساكن والأراضي. ويجب أن يكون واضحاً لمن لاحظ الارتفاع في قيمة الأراضي بعد زراعتها أن الشركة لابد ستجني أرباحاً من الأراضي التي تملكها. ويتضح هذا جلياً في قطع الأراضي المحوَّطة في المدن والأرياف. إن المساحات التي لم يبن عليها تزداد قيمةً حين تحيط بها المزارع. إن الذين قاموا بتوسيع باريس أقدموا على مضاربة ناجحة في الأراضي كانت بارعة في بساطتها: فبدلاً من إنشاء مبانٍ جديدة تحاذي آخر بيت في المدينة ابتاعوا قطعاً مجاورة من الأراضي وأخذوا يبنون في ضواحيها. وهذا الوضع المعكوس في البناء رفع من قيمة مواقع المباني بسرعة فائقة، وبعد أن أكملوا بناء الحلقة الخارجية بدأوا بالبناء في وسط المدينة على هذه المواقع ذات القيمة العالية عوضاً عن الاستمرار في تشييد البيوت في المناطق الخارجية.

هل ستقوم الشركة بنفسها بالبناء أم توكل ذلك إلى معماريين مستقلين؟ إن بوسعها أن تبني بالطريقتين. ولدى الشركة، كما سنبين أدناه، احتياطي ضخم من القوى العاملة، التي لن تستغلها الشركة وإنما ستنقلها إلى أمكنة أفضل بكثير ستكون مع ذلك بسعر غير باهظ. وسيتولى رجالنا من الجيولوجيين توفير مواد البناء عندما يختارون المواقع للمدن.

فما هو المبدأ الذي تسير عليه الإنشاءات؟

مساكن العمال

سيجري إنشاء مساكن للعمال جميعاً على نفقة الشركة وعهدتها. ولن تكون هذه المساكن مشابهة لثكنات العمال الكئيبة الموجودة في المدن

الأوروبية ولا مشابهة للصفوف البائسة من الأكواخ المحيطة بالمعامل؛ غير أنها بالتأكيد ستكون ذات مظهر موحد لأن على الشركة أن تبني بكلفة زهيدة. أما البيوت المستقلة ذات الحدائق الصغيرة فستكون متجاورة تشكل مجموعات جذابة في كل حي من الأحياء. إن التكوين الطبيعي للأرض سيثير براعة مهندسينا المعماريين الشباب الذين لم يضيق الروتين من أفكارهم؛ وحتى لو لم يدرك الناس المضمون الكلي للخطة فإنهم في كل الأحوال سيشعرون بالاطمئنان في تجمعاتهم السكنية المتفرقة. وسيشاهد الهيكل المقدس من بعيد، ذلك أن ديانتنا القديمة هي التي تجمعنا معاً. ستكون هناك مدارس للأطفال، بهيجةً وجذابة وصحية تدار وفق أحدث الأنظمة المشهود لها تربوياً. وستكون هناك مدارس لإكمال الدراسة خاصة بالعمال لتزيد من معارفهم الفنية وتمكنهم من الإلمام الكافي بعمل المكائن. وستكون هناك أمكنة للتسلية تكون جمعية اليهود مسؤولة عن إدارتها بشكل صحيح.

هذا وإننا نتكلم فقط عن المباني حالياً، ولا نتكلم عما يجري في داخلها.

لقد قلت إن الشركة ستبني مساكن العمال بكلفة زهيدة، وهذا ليس فقط لقرب مواد البناء الوفيرة ولأن الشركة تمتلك الأرض بل أيضاً لأن العمال لا يطالبون بالدفع.

إن المزارعين الأمريكيين يعملون وفق نظام المساعدة المتبادلة في بناء المساكن. وهذا النظام الذي يتوخى المحبة على نحو صبياني هو نظام غير ملائم مثله مثل كتل البيوت المشيدة، غير أن من الممكن تطويره بشكل أفضل كثيراً.

العمال غير المهرة

إن على عمالنا غير المهرة، الذين سيأتون أولاً من الخزانات الكبرى في روسيا ورومانيا، أن يمدوا يد المساعدة ما استطاعوا في إنشاء

المساكن. سيكون عليهم البناء بالخشب في البداية، لأن الحديد لن يكون متوفراً في الحال. أما في ما بعد فإن الأبنية الأصلية، غير الوافية بالغرض، والموقتة ستحل محلها مساكن أحسن بكثير.

سيقوم عمالنا غير المهرة في الابتداء بإنشاء تلك المساكن بالاشتراك، ومن ثم سيحصلون على بيوتهم فيمتلكونها بشكل دائم وذلك بواسطة عملهم ـ ولا يحصل هذا فوراً وإنما بعد ثلاث سنوات من السلوك الحسن. سنحصل بهذه الطريقة على رجال نشيطين وقادرين، وسيدرب هؤلاء مدة ثلاث سنوات من العمل وفق نظام جيد فيكسبون خبرة عملية تدوم مدى الحياة.

قلت سابقاً إن الشركة لن تدفع أجوراً لهؤلاء العمال غير المهرة. فعلى ماذا سيعيشون؟

إني بشكل عام أعارض نظام دفع الأجور عيناً وليس نقداً، إنما لابد من تطبيقه في حالة هؤلاء المستوطنين الأوائل. إن الشركة توفر لهم احتياجاتهم بطرق عديدة وقد تتولى إعاشتهم. سينفذ نظام الدفع العيني على أية حال خلال السنين القليلة الأولى فقط، وسيكون نافعاً للعمال إذ إنه يحول دون استغلالهم من قبل التجار الصغار وأصحاب الأراضي وغيرهم، وبذلك ستجعل الشركة من المستحيل ابتداء على أولئك الأفراد من شعبنا، الذين هم بحكم الحاجة من الباعة المتجولين هنا، أن يثبتوا أنفسهم هناك في الأعمال ذاتها. وستقوم الشركة برفض معاقري الخمور والفجار. إذن، فلن تكون هناك أجور تدفع على الإطلاق خلال المرحلة الأولى من الاستيطان؟

ستكون هناك بالتأكيد أجور تدفع عن العمل الإضافي.

سبع ساعات عمل في اليوم

إن يوم العمل المعتاد يتكون من سبع ساعات عمل يومياً.

وهذا لا يعني أن أعمال تقطيع الخشب والحفر وتكسير الأحجار

وغيرها من مئات الأشغال الأخرى سيجري القيام بها خلال سبع ساعات. كلا. ستكون هناك أربع عشرة ساعة عمل على وجبات من ثلاث ساعات ونصف للواحدة. إن تنظيم هذا كله سيكون ذا طابع عسكري، فهناك قيادات وترقيات ورواتب تقاعدية، وسنشرح وسائل دفع هذه الرواتب التقاعدية في ما بعد.

إن رجلاً سليماً بوسعه أن يقوم بقدر كبير من العمل المركز في مدة ثلاث ساعات ونصف. وبعد توقف يستغرق الوقت ذاته يكرسه لراحته وعائلته وتعلمه بإشراف مرشدين سيكون جاهزاً تماماً للعمل مرة أخرى. إن عملاً كهذا يصنع الأعاجيب.

وهكذا، فإن يوم العمل البالغ سبع ساعات ينطوي على أربع عشرة ساعة من العمل المشترك، ولا يمكن العمل أكثر من ذلك في يوم واحد.

إني على قناعة تامة بأن من الممكن جداً تطبيق هذا اليوم البالغ سبع ساعات عمل بنجاح. إن المحاولات للقيام بذلك في بلجيكا وانكلترا معروفة جيداً. إن بعض رجال الاقتصاد السياسي من ذوي المعرفة المتقدمة قاموا بدراسة الموضوع ووجدوا أن اليوم البالغ خمس ساعات عمل يفي بالغرض تماماً. على أية حال ستقوم جمعية اليهود والشركة اليهودية بإجراء تجارب جديدة وواسعة ستنتفع منها أمم الأرض، أما إذا ثبت أن يوم العمل البالغ سبع ساعات أمر عملي فسيجري العمل به في دولتنا المستقبلية بصفته يوم العمل القانوني المعتاد.

هذا وستضع الشركة أمام مستخدميها دائماً فرصة العمل سبع ساعات يومياً، وستكون دائماً في وضع يمكنها من ذلك.

إن يوم العمل البالغ سبع ساعات سيكون بمثابة الدعوة إلى شعبنا في أرجاء العالم للمجيء، وعلى الجميع أن يأتوا طواعية، ذلك أن أرضنا هي أرض الميعاد حقاً.

أما الذي يعمل أكثر من سبع ساعات فيتلقى أجراً إضافياً عن العمل الإضافي نقداً. وإذ يجد هذا أن حاجاته كلها تتم تلبيتها وأن أفراد أسرته غير القادرين على العمل يجري إسعافهم من قبل مؤسسات خيرية مركزية فإنه يشعر بأن في وسعه توفير شيء من النقود.

إن نزعة الاقتصاد، وهي أصلاً من خصائص شعبنا، ستشجّع كثيراً لأنها أولاً ستسهل صعود الأفراد إلى درجة أعلى، وثانياً لأن النقد المدخر سيوفر صندوق احتياطٍ ضخماً للقروض في المستقبل. إن العمل الإضافي لن يسمح به إلا على أساس شهادة من طبيب، ويجب ألا يتجاوز هذا العمل ثلاث ساعات. ذلك أن رجالنا سيتزاحمون طلباً للعمل في القطر الجديد، وسيرى العالم عندئذٍ أي شعب كادح نحن.

لن أقوم بوصف طريقة تنفيذ نظام دفع الأجور عيناً، ولن أقدم كذلك التفاصيل العديدة لأية عملية من العمليات، حرصاً على عدم تشويش القراء. لن يسمح للنساء بالقيام بأي عمل مرهق ولا بالقيام بالعمل ساعات إضافية.

وتعفى الحوامل من العمل ويزودن بالطعام المغذي من قبل نظام الدفع العيني. إننا نريد أن تتكون أجيالنا القادمة من رجال أقوياء ونساء قويات.

وسنقوم بتثقيف أطفالنا كما نرغب منذ البداية، لكنني لن أفصل ذلك أيضاً.

إن ملاحظاتي عن مساكن العمال وعن العمال غير الماهرين ونمط حياتهم ليست ملاحظات طوباوية، ومخططي كله ليس كذلك. إن كل شيء قلته يطبق حالياً، إنما على نطاق ضيق جداً لا يلاحظ ولا يفهم. إن «المساعدة عن طريق العمل» وهو الأمر الذي عرفته وفهمته في باريس، قد خدمني كثيراً في حل المسألة اليهودية.

الإغاثة بواسطة العمل

إن نظام الإغاثة بواسطة العمل الذي يطبق الآن في باريس وغيرها من المدن الفرنسية، وفي انكلترا وسويسرا وأمريكا، هو أمر صغير للغاية ولكنه قابل للتوسيع جداً.

فما هو مبدأ الإغاثة بواسطة العمل؟

المبدأ هو أن يعهد إلى كل معوز بعمل سهل، لا يحتاج إلى مهارة، كتقطيع الأخشاب أو جمع الأحطاب في حزم، وهي التي تستعمل لإيقاد المواقد في البيوت في باريس. إن هذا نوع من أنواع عمل السجون إنما قبل ارتكاب الجريمة، وهو يجري من دون أن يخسر المرء كرامته. والمقصود منه هو الحيلولة دون لجوء الناس إلى الجريمة بحكم الحاجة، وذلك بتوفير عمل لهم واختبار استعدادهم للقيام به. يجب ألا نسمح بأن يدفع الجوع الناس إلى الانتحار، فمثل هذا الانتحار وصمة عار في جبين حضارة يقوم فيها الأغنياء بتقديم الأطعمة الشهية إلى كلابهم.

وهكذا، فإن نظام الإغاثة بواسطة العمل يوفر عملاً للجميع، لكن فيه عيباً كبيراً، فليس هناك طلب واسع بما فيه الكفاية على ما ينتجه العمال غير المهرة المستخدمون، لذا تترتب خسارة على من يستخدمهم؛ هذا ومع أن المنظمة هي مؤسسة خيرية فهي بالتالي مهيأة للخسارة. لكن الإحسان هنا يكمن فقط في الفرق بين الأجر المدفوع عن العمل وقيمته الفعلية. فعوضاً عن إعطاء المتسوّل فلسين تعهد له المؤسسة بعمل تخسر فيه فلسين. غير أنها في الوقت نفسه تحول المتسول الذي لا يصلح لشيء إلى كاسب شريف لعله كسب دراهم معدودات تفوق الخسارة الحاصلة أضعافاً مضاعفة من دون أن تلحق بهذا المتلقي للإحسان أية مهانة. وعلى هذا الأساس لن تكون الشركة قد خسرت وإنما ستكون قد جنت أرباحاً طائلة.

ثمة جانب أخلاقي أيضاً، فنظام الإغاثة بواسطة العمل الموجود

الآن يصون الاستقامة الأخلاقية من خلال المثابرة إلى أن يجد العاطل وظيفة تناسب قدراته سواءً في مهنته القديمة أو في مهنة جديدة. هذا ويسمح له بالتغيب بعض الوقت لغرض البحث عن عمل وتساعده المؤسسات في ذلك.

كان العيب حتى الآن في هذه التنظيمات الصغيرة منعها من التنافس مع تجار الأخشاب وغيرهم، فهؤلاء التجار هم من الناخبين - وهم سيحتجون ويعتبرون على حق في احتجاجهم. كذلك كانت المنافسة مع أعمال سجون الدولة محرمة أيضاً، فالدولة يجب أن تؤوي وتطعم مجرميها.

وواقع الأمر أنه لا يوجد سوى مجال محدود في مجتمع قديم للتطبيق الناجح لمبدأ «المساعدة عن طريق العمل».

إنما هناك مجال في مجتمع جديد.

ذلك أننا نتطلب، قبل أي شيء آخر، أعداداً كبيرة من العمال غير الماهرين ليقوموا بالأشغال الشاقة للاستيطان، ولشق الطرق وغرس الأشجار وتسوية الأرض وبناء سكك الحديد وتأسيسات البرق، الخ. إن كل هذا سينفذ وفق خطة واسعة جرى إقرارها سلفاً.

التجارة

إن مجيء العمال إلى القطر الجديد سيخلق التجارة بشكل طبيعي. وستقوم الأسواق الأولى بتجهيز ضرورات الحياة فقط كالمواشي والحبوب وملابس العمل والعدد والأسلحة وغيرها. سنضطر في البداية إلى الحصول على هذه السلع من الدول المجاورة أو من أوروبا؛ لكننا سنعمل على أن نكون مستقلين بأسرع وقت ممكن. وسرعان ما سيدرك المقاولون اليهود مدى الإمكانيات الموجودة في القطر الجديد وآفاق العمل المفتوحة فيها.

وستعمل حشود الموظفين التابعين للشركة على إدخال ما هو أرقى من متطلبات الحياة وذلك بشكل تدريجي (ومن هؤلاء الموظفين ضباط قواتنا الدفاعية الذين سيشكلون دائماً نحو عشر عدد المستوطنين الذكور. سيكون هذا كافياً لقمع التمردات، ذلك أن أغلبية المستوطنين هم من المسالمين).

إن ما يدخله موظفونا من ذوي المراكز الحسنة من متطلبات راقية للعيش سيؤدي بشكل متناظر إلى تحسن السوق الذي سيستمر بتطوير نفسه. إن الرجل المتزوج سيأتي بزوجته وأطفاله، والأعزب بوالديه وأقربائه، حين يؤسس لنفسه مسكناً جديداً «هناك». كانت هذه دائماً هي الشاكلة التي سار عليها اليهود الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية. فما ان يكسب أحدهم رزقه اليومي ويكون فوقه سقف يقيه حتى يبادر إلى جلب أهله، ذلك أن صلة الرحم قوية عندنا. وستعمل جمعية اليهود والشركة اليهودية معاً على بذل مزيد من الرعاية للأسر وشد أزرها مادياً ومعنوياً. وسيتلقى الموظفون زيادة في الراتب عن الزواج وعن الطفل المولود إذ إننا بحاجة إلى جميع الموجودين هناك وإلى الذين سيتبعونهم ويحذون حذوهم.

أصناف أخرى من المساكن

تناولت سابقاً مساكن العمال فقط التي تبنى من قبلهم وأغفلت ذكر الأصناف الأخرى من المساكن، وهي التي سأتناولها الآن. إن معماريي الشركة سيبنون للفقراء الذين تدفع لهم أجورهم عيناً أو نقداً، وهناك نحو مئة نوع مختلف من البيوت التي تبنى. وستكون الأنواع الجميلة منها جزءاً من دعايتنا. وستقوم الشركة بضمان سلامة البناء وهي في واقع الأمر لن تكسب شيئاً من بيعها للمستوطنين بمبلغ مقطوع. فأين ستكون مواقع هذه البيوت؟ سنبين ذلك في القسم الخاص بالجماعات المحلية.

وبما أن الشركة لا ترغب بالكسب من أعمال البناء وإنما من

الأراضي فقط فإنها تتمنى أن يقوم أكبر عدد ممكن من المعماريين بالبناء بموجب عقد يعقد مع الأفراد. إن هذا النظام سيرفع من قيمة الأراضي المملوكة وسيفتح الباب أمام الترف وهو يخدم أغراضاً متعددة. إن الترف يشجع الفنون والصناعات ويمهد السبيل لتقسيم الملكيات الكبيرة في المستقبل.

إن اليهود الأغنياء الذين يضطرون الآن إلى إخفاء مقتنياتهم النفيسة وإلى إقامة ولائمهم الكئيبة خلف الستائر المسدلة سيتمكنون من التمتع بممتلكاتهم بسلام «هناك». فإذا تعاونوا في تنفيذ مخطط الهجرة هذا فإن رأس المال سيعاد تأهيله هناك ويكون قد قدم خدمة في ترويج مهمة لا مثيل لها. ولئن باشر أغنياء اليهود ببناء قصورهم من جديد في المستوطنات الجديدة، وكان ينظر إليها شزراً بعيون الحسد، فإنها سرعان ما ستصبح طرازاً يحتذى للعيش هناك في بيوت عصرية جميلة.

بعض أشكال التصفية

ستقوم الشركة اليهودية بعمل المصفي والمدير للأموال غير المنقولة التي يملكها اليهود. من الممكن تصور إجراءاتها بسهولة في حالة المساكن والأراضي. ولكن ما هي الإجراءات التي ستتبع في نقل الأعمال؟

ثمة عمليات لا حصر لها قد تكون عملية، ولا يمكن التوسع في شرحها في هذا الملخص، لكنها كلها لا تواجه صعوبات كبيرة، فصاحب العمل هو الذي سيقرر بالاشتراك مع موظفي الشركة في منطقته ما هو شكل التصفية الأنفع له وذلك حين يقدم طوعاً على الهجرة.

سيكون ترتيب ذلك سهلاً للغاية في حالة ذوي الأعمال الصغيرة التي يكون فيها النشاط الشخصي لصاحب العمل هو الأهم، أما السلع والتنظيم **فذوا اعتبار ثانوي**. إن الشركة ستوفر ميداناً معيناً من ميادين العمل يتفق مع النشاط الشخصي للمهاجر وتقدم له قطعة أرض عوضاً

عن سلعه مع إعارته بعض المكائن. واليهود معروفون بتكييف أنفسهم بسهولة بالغة مع أي شكل من أشكال الارتزاق، كما أنهم سيتعلمون سريعاً مزاولة صناعة جديدة. وبهذه الطريقة سيصبح عدد من التجار الصغار ملاكين صغاراً للأراضي. وواقع الأمر أن الشركة ستكون مستعدة لتحمل الخسارة الظاهرية الناجمة من وضع يدها على الأموال غير المنقولة العائدة للمهاجرين الفقراء، لأنها بتوليها أمر أراضيهم ستشجع على زراعة قطع منها، وهو ما يرفع من قيمة القطع المجاورة لها.

أما الأعمال ذات الحجم المتوسط التي تكون فيها أهمية السلع والتنظيم مساوية لأهمية النشاط الشخصي، أو أكثر أهمية منه، وتكون العلاقات الواسعة لصاحب العمل هي أيضاً بمثابة مال غير منقول، فهناك أشكال ممكنة ومختلفة من التصفية. وهنا تسنح الفرصة للمواطنين المسيحيين ليأخذوا المكان الذي يتخلى عنه اليهود. إن اليهودي الذي يغادر لن يفقد سمعته الشخصية الخاصة بالعمل بل سيحملها معه وينتفع منها لتثبيت نفسه في قطر جديد. وستفتح الشركة اليهودية له حساباً مصرفياً جارياً. كما أن بوسعه أن يبيع اسم عمله الأصلي أو يسلمه إلى سيطرة مدراء يخضعون لإشراف موظفي الشركة. وقد يستأجر المدراء العمل أو يشترونه ويدفعون ثمنه بالأقساط. لكن الشركة تعمل موقتاً بصفتها الوصي على المهاجرين في إشرافها من خلال موظفيها ومحاميها على إدارة شؤونهم ومراقبتها للجباية الصحيحة للدفعات جميعاً.

فإذا لم يستطع اليهودي بيع مكان عمله، ولم يكن يريد أن يعهد به إلى وكيل أو أن يتخلى عن إدارته الشخصية له، فإن له أن يبقى حيث هو. واليهود الذين سيبقون حيث هم لن يكونوا أسوأ حالاً إلا أنهم سيتخلصون من منافسة المغادرين ولن يعودوا يسمعون الصيحة اللاسامية التي تناشد السامعين: «لا تشتروا شيئاً من اليهود».

إذا كان صاحب العمل المهاجر يرغب في مواصلة عمله القديم في القطر الجديد فبوسعه أن يرتب هذا الأمر منذ البداية. فلنضرب على ذلك

مثلاً لتوضيح المعنى. إن متجراً ما يتعاطى بتجارة الأقمشة على نطاق واسع، ويرغب صاحبه بالهجرة. إنه يبدأ بفتح فرع لمتجره في مكان إقامته الذي سيتخذه في المستقبل. ويأخذ بإرسال نماذج من بضاعته إليه. سيكون المستوطنون الفقراء الأوائل من أوائل زبائنه، وسيتبعهم المهاجرون من طبقة أعلى الذين يريدون سلعة أرقى. عندئذٍ يرسل المتجر بضاعة أحدث، وهكذا أحدث فأحدث. يبدأ الفرع بجني الربح فيما يكون المتجر الرئيسي لم يزل قائماً، بحيث يصبح لديه متجران مربحان. يبيع المالك متجره الأصلي أو يسلمه إلى ممثله المسيحي ليديره ويغادر ليتولى المتجر الجديد.

إليك مثلاً آخر: إن شركة «فلان وولده» تتعامل بتجارة الفحم على نطاق واسع وتمتلك مناجمها ومصانعها. فكيف يرتب أمر هذا الملك العظيم والمتشعب؟ إن المناجم وما يتصل بها قد تشتريها الدولة التي تقع المناجم في أراضيها، أو قد تتملكها الشركة اليهودية وتدفع جزءاً من ثمنها أرضاً والجزء الآخر نقداً. ومن الممكن كذلك كطريقة ثالثة تحويل الشركة إلى شركة محدودة. والطريقة الرابعة هي استمرار المالك الأصلي بعمله من الخارج فيعود على فترات لتفقد عمله بصفته أجنبياً بحماية القانون في دولة متحضرة. إن هذه الاقتراحات تطبق كلها يومياً. الطريقة الخامسة، وهي رائعة وقد تكون مربحة على وجه الخصوص، هي طريقة سأشير إليها عرضاً لأن أمثلتها الموجودة حالياً قليلة، كما أنها ضعيفة وإن كان الوعي الحديث جاهزاً للسير على منوالها. إن شركة «فلان وولده» قد تبيع مؤسستها إلى هيئة جماعية تتألف من مستخدميها فتتكون منها جمعية تعاونية ذات مسؤولية محدودة، ولعلها تستطيع دفع المبلغ المطلوب بدعم من خزانة الدولة التي لا تتقاضى فائدة باهظة.

يقوم المستخدمون بعدئذٍ بتسديد القرض تدريجياً. وهو القرض الذي قامت بتسليفه الحكومة أو الشركة اليهودية أو حتى شركة «فلان وولده».

ستكون الشركة اليهودية مستعدة للقيام بنقل مصالح العمل صغيرها وكبيرها على السواء. وفيما يهاجر اليهود بهدوء ويؤسسون مساكنهم الجديدة، تعمل الشركة بصفتها هيئة رقابية كبرى تنظم المغادرة، وتتولى أمر الممتلكات المتروكة، وتضمن الإدارة الصحيحة للحركة بما لديها من ممتلكات ملموسة وواضحة للعيان، وتوفر الأمان الدائم لأولئك الذين استوطنوا فعلاً.

الضمانات التي تقدمها الشركة

ما هي الضمانات التي ستقدمها الشركة حتى لا يسبب هجر الأقطار إصابتها بالفقر والأزمات الاقتصادية؟

ذكرت سابقاً أن اللاساميين المخلصين سيشاركون موظفينا في أمر نقل الممتلكات في الوقت الذي يحافظون فيه على استقلالهم.

لكن إيرادات الدولة قد تصاب بخسارة مجموعة من دافعي الضرائب، وهم الذين، وإن كانوا لا يقدِّرون حق قدرهم إلا أنهم يقدرون كل التقدير في حقل المال. لذا ينبغي أن تتلقى الدولة تعويضاً عن هذه الخسارة. سنقدم ذلك بشكل غير مباشر بتركنا في القطر مؤسسات أعمال أنشأناها بالحنكة اليهودية والكد اليهودي، نتركها لإخواننا المسيحيين ليحلوا محلنا فنسهّل بذلك وصول عدد من الناس إلى حالة من الرخاء الواسع بطريقة سلمية لا مثيل لها. كانت الثورة الفرنسية قد أتت بنتيجة مماثلة إلى حد ما ولكنها جاءت بسفك الدماء التي سالت من المقصلة في كل إقليم من أقاليم فرنسا وعلى ساحات المعارك في أوروبا. يضاف إلى هذا ما جرى من سلب لحقوق موروثة ومكتسبة، واستطاع المشترون الماكرون وحدهم أن يحققوا الثراء لأنفسهم بابتياع ممتلكات الدولة.

إن الشركة اليهودية ستقدم للدول التي تعمل فيها منافع مباشرة

وغير مباشرة معاً. إنها ستعطي الأولوية للحكومات لشراء الممتلكات اليهودية المتروكة وستمنح المشترين أفضل الشروط. إلى هذا ستتمكن الحكومات من الاستفادة من هذا الاستيلاء الودي على الأراضي لغرض القيام بتحسينات اجتماعية معينة.

وستقدم الشركة اليهودية للحكومات والبرلمانات مساعدتها التامة في جهودها لتوجيه الهجرة الداخلية للمواطنين المسيحيين.

إن الشركة اليهودية ستدفع كذلك رسوماً باهظة. سيكون مركزها الرئيسي في لندن لكي تكون بحماية القانون في دولة هي ليست في الوقت الحاضر لاسامية. لكن الشركة، إذا حظيت بالدعم بصورة رسمية وشبه رسمية، ستوفر مجالاً واسعاً لفرض الضرائب على أنشطتها، فهي ستؤسس فروعاً خاضعة للضريبة في كل مكان. إلى هذا ستدفع الحركة رسوماً مضاعفة على ما تقوم به من تحويل مزدوج للسلع. إنها، حتى في الصفقات التي لا تكون فيها أكثر من وكالة عقارية للبيع والشراء، ستظهر موقتاً بمظهر المشتري وستسجل كمالك موقت في السجل العقاري.

إن هذه هي بالطبع أمور حسابية محض يجب النظر فيها واتخاذ القرار بشأنها في الأمكنة المختلفة، مع تقرير مدى استمرارية الشركة من دون أن تحيق بها مخاطر الفشل. إن الشركة نفسها ستتداول بحرية مع وزراء المال عن النقاط المختلفة موضوع البحث، وسيلمس هؤلاء روح الصداقة في مشروعنا فيقدمون ما في وسعهم من تسهيلات ضرورية لإنجاح المهمة العظمى بنجاح.

ستجني الحكومات ربحاً آخر مباشراً من نقل الركاب والسلع، وستكون العائدات بيّنة حالاً عندما تكون سكك الحديد مملوكة من الدولة. أما عندما تكون ملك الشركات الخاصة فستخصّ الشركة اليهودية بشروط مناسبة للنقل، مثلها مثل أي ناقل آخر للسلع على نطاق واسع. يجب أن تكون رسوم الشحن ونقل الركاب بالنسبة إلى أهالينا أرخص ما

يمكن، ذلك أن كل مسافر منهم سيدفع نفقاته من كيسه الخاص. إن أفراد الطبقة الوسطى سيسافرون بواسطة شركة كوك، أما الطبقات الفقيرة فتسافر بالقطارات المخصصة للمهاجرين. قد تحصل الشركة على الشيء الكثير من التخفيضات على نقل الركاب والسلع، لكن عليها، في هذه الحالة والحالات الأخرى كلها، أن تلتزم بمبدئها القاضي بألا تحاول أن تحصل على ما يزيد عن المبالغ اللازمة لسداد نفقات التشغيل فيها.

إن اليهود يسيطرون في عدد من الأماكن على النقل، وستكون مؤسسات النقل أول ما تحتاج إليه الشركة وأول ما تقوم بتصفيته. وسيكون أمام أصحاب هذه المؤسسات الأصليين إما الدخول في خدمة الشركة أو تثبيت أقدامهم بشكل مستقل «هناك». وسيتطلب القادمون الجدد المساعدة من هؤلاء بالتأكيد فهم أصحاب مهن مجزية وسيزاولونها لكسب الرزق وسيشجع ذلك على مغادرة عدد ممن يتمتعون بروح الإقدام. وليس من الضروري وصف تفاصيل الأعمال كلها لهذه الحملة الضخمة، فهي يجب أن تتطور بحكمة وانطلاقاً من الخطة الأصلية ويقوم بذلك رجال قادرون، عليهم أن يستعينوا بذكائهم لتحقيق النظام الأفضل.

بعض نشاطات الشركة

ستكون النشاطات مترابطة بعضها ببعض. مثلاً، ستعمل الشركة بالتدريج على تأسيس صناعات لإنتاج السلع في المستوطنات، وستكون، بالطبع، صناعات بدائية في أول الأمر. سيجري أولاً إنتاج الأقمشة والملابس الداخلية والأحذية لمهاجرينا الفقراء، الذين سيزودون ببذلات جديدة في مراكز الهجرة المختلفة في أوروبا. ولن تقدم هذه الملابس لهم كصدقة فقد يجرح ذلك كبرياءهم بل بمبادلتها بملابسهم القديمة، وستسجل خسارة الشركة الناجمة من هذه الصفقة كخسارة ناشئة عن العمل. هذا والذين لا يملكون شيئاً على الإطلاق سيترتب عليهم سداد

دينهم للشركة بالقيام بعمل إضافي بنسبة عادلة من الأجور.

ستستطيع جمعيات الهجرة القائمة حالياً تقديم مساعدة قيمة هنا، إذ سيقومون لمستوطني الشركة بما قاموا به من قبل لليهود المغادرين. سيكون من السهل العثور على أشكال هذا التعاون.

سيكون حتى للملابس الجديدة الخاصة بالمستوطنين الفقراء معنى رمزي. «إنكم تبدأون الآن حياة جديدة». وستعمل جمعية اليهود سواء قبل المغادرة بفترة طويلة وخلال الرحلة على إشاعة روح جادة لكنها بهيجة. وذلك بواسطة الصلوات والمحاضرات والإرشادات عن الغرض من البعثة مع توجيهات صحية بشأن أمكنة الإقامة الجديدة، وتوجيهات تخص العمل في المستقبل. ذلك أن أرض الميعاد هي أرض العمل. وعند وصول المهاجرين، سيجري الترحيب بهم من قبل كبار موظفينا واستقبالهم بالوقار الذي تقتضيه المناسبة إنما بلا تهلل أخرق، فأرض الميعاد لم يتم فتحها بعد. على أن من الضروري أن يشعر هؤلاء الفقراء حالاً بالارتياح وكأنهم في بيوتهم.

ولن تقوم صناعات الأقمشة التابعة للشركة بالإنتاج إلا بعد التنظيم الصحيح، بطبيعة الحال. وستقوم جمعية اليهود بالحصول من الفروع المحلية على معلومات عن عدد المستوطنين، ومتطلباتهم، وتواريخ وصولهم، وتنقلها حالاً إلى الشركة اليهودية. وبهذه الطريقة سيكون من الممكن توفير التدابير الوقائية كلها لهؤلاء المستوطنين.

تشجيع الصناعات

ليس من الممكن في هذا العرض الموجز فصل واجبات الشركة اليهودية عن واجبات جمعية اليهود، فعلى هاتين الدولتين العظيمتين العمل يداً بيد باستمرار، فالشركة تعتمد على دعم الجمعية وسلطتها المعنوية، والجمعية لا تستطيع الاستغناء عن المساعدة المادية من الشركة. مثلاً، عند

تنظيم صناعة الأقمشة تكون الكمية المنتجة في البداية قليلة وذلك لحفظ التوازن بين العرض والطلب؛ وكلما تولت الشركة تنظيم صناعات جديدة وجبت ممارسة الحيطة ذاتها.

غير أنه يجب على الشركة ألا تستخدم قوتها المتفوقة للحد من المشاريع الفردية. إننا لن نقوم بالعمل الجماعي إلا عندما تتطلب الصعوبات الكبيرة بوجه المهمة المطلوبة القيام بعمل مشترك؛ وسوف نحترم بغاية الدقة حقوق الأفراد كلما كان ذلك ممكناً. وسيجري تطوير الملكية الخاصة بحرية ويتم احترامها من قبلنا فهي الأساس الاقتصادي للاستقلال. وستتاح لعمالنا غير المهرة الأوائل، في الحال، فرصة شق طريقهم نحو حيازة الملكية الخاصة.

ويجب في حقيقة الأمر تشجيع روحية الإقدام على تأسيس المشاريع بكل وسيلة ممكنة. سيجري ترويج التنظيم للصناعات وذلك عن طريق نظام حكيم للواجبات، واستخدام المواد الخام الرخيصة، وتأسيس هيئة لجمع الإحصاءات الصناعية ونشرها.

لكن تشجيع هذه الروحية يجب أن يجري بحكمة، كما يجب تحاشي مخاطرة المضاربة. ويتحتم على كل صناعة تؤسس حديثاً أن يعلن عنها سابقاً بأمد طويل لئلا يتعرض من يريد البدء بعد ستة أشهر من تأسيسها إلى فشل مالي. وسيتوجب إخبار الشركة بالغرض من كل عمل جديد وبذلك يستطيع الجميع الاطلاع على الظروف الصناعية القائمة.

سيتمكن المتعهدون كذلك من الاستفادة من وكالات العمال المركزية التي لا تتقاضى إلا العمولة الكافية لضمان استمرارها. فالمتعهد مثلاً قد يطلب برقياً خمسمئة عامل غير ماهر لثلاثة أيام أو ثلاثة أسابيع أو ثلاثة أشهر. عندئذٍ تقوم الوكالة بجمع هذا العدد من مصادر مختلفة وترسلهم على الفور لأداء العمل الزراعي أو الصناعي المطلوب. لذا سيجري نقل زمر العمال من مكان إلى مكان بانتظام كأنها قطعات عسكرية. ولن

يجري، بالطبع، استغلال هؤلاء العمال بل سيعملون سبع ساعات في اليوم فقط. وعلى الرغم من تغيير محل عملهم فسيحافظون على تنظيمهم ويرتبون مدة خدمتهم ويتلقون الأوامر ويحظون بالترفيعات وبالرواتب التقاعدية. وسيكون بوسع المتعهدين المستقلين بالطبع الحصول على العمال من مصادر أخرى إذا أرادوا، لكنهم لن يجدوا ذلك سهلاً. وستتمكن الجمعية من منع تشغيل العمال غير اليهود الذين يعملون ساعات عمل أكثر وذلك بمقاطعة أصحاب العمل المتعنتين، وبإعاقة المرور على الطرقات، وبطرق أخرى مختلفة. وسيتم بذلك استخدام العمال الذين يعملون سبع ساعات فقط، وسنقتع أهالينا عن طريق ذلك تدريجياً، ومن دون إكراه، باتباع يوم العمل المعتاد البالغ سبع ساعات.

توطين العمال الماهرين

من الواضح أن ما يمكن القيام به للعمال غير الماهرين يكون القيام به للماهرين منهم من باب أولى، وبسهولة. سيعمل هؤلاء في المعامل وفق أنظمة مشابهة؛ وستقوم وكالة العمال المركزية بتجهيزهم عند الطلب.

ويتحتم تدريس عمال الميكانيك المستقلين وأصحاب العمل الصغار تدريساً حسناً بالنظر إلى التقدم السريع في العلوم، وعليهم أن يتزودوا بالمعرفة الفنية وإن تجاوزوا سن الشباب، فيدرسوا مثلاً مصادر الماء ويقدروا قوة الكهرباء. ويجب على وكالة الجمعية أيضاً أن تكتشف العمال المستقلين وتقوم بتوزيعهم. سيطلب الفرع المحلي مثلاً من المكتب الرئيسي ما يلي: «نريد عدداً من النجارين والحدادين وعمال الطلاء، إلخ». فيقوم المكتب بنشر هذا الطلب، ويتقدم عدد من المؤهلين لتولي العمل المطلوب عندئذٍ يسافر هؤلاء مع أسرهم إلى حيث يُطلَبون، ويظلون هناك من دون الشعور بضغط المنافسة التي لا مبرر لها. وعلى هذا يزوّدون بسكن دائم ومريح.

طرق خاصة بجمع رؤوس الأموال

سبق أن قدّرنا في هذا الكتيب مقدار رأس المال المطلوب لتأسيس الشركة وهو على ما يبدو رقم كبير جداً. إن المبلغ الضروري فعلاً سيحدده رجال المال، وهو على أية حال سيكون مبلغاً ضخماً للغاية. هناك ثلاث طرق لجمع هذا المبلغ، وستأخذها الجمعية بالاعتبار. وهذه الجمعية ستتألف من أفاضل اليهود وأخيارهم الذين عليهم ألا يجنوا أية منفعة مادية من عضويتهم فيها. ومع أن الجمعية لا تستطيع في البداية سوى أن تتحلى بسلطة معنوية غير أن هذه السلطة ستكون كافية لتثبيت الثقة بالشركة اليهودية في أعين الأمة. والشركة لن تستطيع النجاح في مشروعها إلا بمباركة من الجمعية، لذا فإن تأليف الشركة لن يكون لمن هب ودب من رجال المال. ذلك أن الجمعية هي التي ستختار المؤسسين وتقرّرهم بعد التدقيق الشديد، وهي لن تصادق على أحد منهم إلا إذا توفر فيه صدق النية في تنفيذ المخطط. والجمعية لن تسمح بإجراء تجارب بوسائل غير وافية بالغرض، فهذه المهمة يجب أن تنجح في المحاولة الأولى. إن أي فشل في البداية سيعرّض الفكرة برمتها للشبهة أو الفضيحة على مدى عقود قادمة، لا بل قد يجعل من تحقيقها مستحيلاً استحالة دائمة.

أما الطرق الثلاث لجمع رأس المال فهي: (١) من خلال البنوك الكبيرة؛ (٢) من خلال بنوك صغيرة وبنوك خاصة؛ (٣) من خلال الاكتتاب العام.

والطريقة الأسهل والأسرع والأسلم هي من خلال البنوك الكبيرة. من الممكن بهذه الطريقة جمع المبلغ المطلوب بأقصر وقت ممكن من المجموعات المالية الكبيرة التي تكون قد بحثت صواب المنهج. والميزة الكبيرة لهذه الطريقة أنها تتحاشى ضرورة دفع المبلغ برمته فوراً وهو يقدر بآلاف الملايين (إذا أخذنا الرقم الأصلي المقترح). ومن المزايا الأخرى أن رصيد رجال المال الأقوياء هؤلاء سيعود بالفائدة على المشروع. إن كثيراً

من القوى السياسية المستترة تكمن في قوتنا المالية، تلك القوة التي يزعم أعداؤنا أنها فعالة للغاية، وهي قد تكون كذلك، أما في واقع الأمر فلا. إن فقراء اليهود لا يشعرون إلا بالكراهية التي تثيرها فيهم هذه القوة المالية. إنهم لم يحسوا بعد بأن هذه القوة تستخدم للتخفيف مما يعانون. إن رصيد رجال المال اليهود العظام ينبغي أن يوضع في خدمة **الفكرة القومية**. أما إذا شعر هؤلاء الكرام، الذين هم قانعون كل القناعة بما لديهم، بالنفور من القيام بأي شيء لإخوانهم اليهود، الذين تلقى على عواتقهم ظلماً مسؤولية ما لدى أفراد بعينهم من ممتلكات واسعة، فإن تحقيق هذه الخطة سيتيح الفرصة لرسم خط فاصل بينهم وبين اليهود الآخرين.

هذا، ولن يطلب بالتأكيد كبار رجال المال أن يقدموا مبلغاً طائلاً من قبيل الإحسان وعمل الخير، فهذا طلب يتجاوز الحد. إن المساهمين في الشركة اليهودية والمروجين لها إنما ينوون، على العكس من ذلك، القيام بعمل مجزٍ، وسيجرون حساباتهم مقدماً لمعرفة ما ستكون عليه فرص النجاح. ذلك أن جمعية اليهود ستكون لديها الوثائق والمراجع التي قد تساعد في تقرير مستقبل الشركة اليهودية وإمكانياتها. وستكون الجمعية قد قامت على وجه الخصوص باستقصاء دقيق لحجم الحركة اليهودية الجديدة حتى تزوّد مروجي الشركة بمعلومات يعوّل عليها عن مقدار الدعم الذي قد يتوقعونه. وستقوم الجمعية كذلك بتزويد الشركة اليهودية بإحصاءات حديثة شاملة عن اليهود، فتكون بذلك قد قامت بالعمل الذي تقوم به في فرنسا ما يسمى(*) (Societé d'etudes)، التي تتولى البحث الأوّلي السابق لتمويل المشاريع الكبرى. وبالرغم من هذا فقد لا يحظى المشروع بمساعدة أغنيائنا الكبار، ولعلهم سيحاولون حتى معارضة الحركة اليهودية بواسطة خدّامهم ووكلائهم. إننا سنواجه مثل هذه المعارضة،

(*) جمعية دراسات.

وغيرها مما قد يفرض علينا، بعزيمة لا هوادة فيها.

فإذا فرضنا أن هؤلاء الأغنياء سيكتفون فقط بالابتسام وهم يرفضون هذا المخطط، فماذا بعد؟

هل يكون المخطط قد انتهى لهذا السبب؟ كلا.

ذلك أن المال سيجمع عندئذٍ بطريقة أخرى ـ بمناشدة اليهود المتوسطي الثراء. وسيكون على البنوك اليهودية الصغيرة أن تتحد باسم **الفكرة القومية** ضد البنوك الكبيرة إلى أن يكوّنوا قوة مالية ثانية وضخمة. ولسوء الحظ سيتطلب ذلك تمويلاً كبيراً في البداية. ذلك أن مبلغ الخمسين مليون جنيه استرليني يجب الاكتتاب به كاملاً قبل البدء بالعمل؛ وبما أن هذا المبلغ لا يمكن جمعه إلا بشكل بطيء فلا بد من اللجوء إلى مختلف أنواع العمليات المصرفية والحصول على قروض خلال السنوات القليلة الأولى. هذا وقد يحصل، إبان هذه الصفقات كلها، أن يسدل النسيان على الغرض الأصلي: فاليهود متوسطو الثراء سيكونون قد حققوا أعمالاً مجزية جديدة وواسعة فيقرأوا السلام على الهجرة اليهودية.

إن فكرة جمع الأموال بهذه الطريقة ليست فكرة غير عملية على الإطلاق. لقد جرت سابقاً تجربة جمع المال المسيحي لتشكيل قوة تقف بوجه البنوك الكبيرة؛ أما قوة أخرى من المال اليهودي تقف كذلك بوجه هذه البنوك فلم يجر التفكير بها حتى الآن.

لكن هذه الصراعات المالية من شأنها أن تحدث أزمات شتّى؛ ستعاني الأقطار التي تحدث فيها هذه الأزمات وتتفشى فيها اللاسامية.

لذا لا يُوصى بهذه الطريقة، ولم أذكرها إلا لأنها تخطر على البال في سياق التطوير المنطقي للفكرة.

ولا أدري أيضاً إن كانت البنوك الخاصة الصغيرة مستعدة لتبني الموضوع.

وعلى أية حال فحتى الرفض من قبل اليهود متوسطي الثراء لن يضع حداً نهائياً للمخطط. على العكس، فهذا الرفض سيؤدي عندئذٍ إلى تولي المخطط من جديد بجدية حقيقية.

قد تحاول جمعية اليهود، وأعضاؤها ليسوا من رجال الأعمال، تأسيس الشركة على أساس الاكتتاب العام.

إن من الممكن جمع رأسمال الشركة من دون توسط مؤسسة مالية وذلك عن طريق الاكتتاب المباشر الذي يطرح على الجمهور. وسيكتتب بمبالغ صغيرة ليس فقراء اليهود وحدهم بل كذلك المسيحيون الذين يريدون التخلص منهم. وهكذا سينشأ شكل جديد وفريد من الاستفتاء، فيستطيع من يريد التصويت لهذا الحل للمسألة اليهودية أن يعبر عن رأيه بالاكتتاب بمبلغ ما مشروط. وهذا الاشتراط يولّد الضمانة. فالمبالغ المكتتب بها لن تدفع إلا إذا تم الاكتتاب بالمبلغ المطلوب برمته، وإلا تعاد الدفعات الأولية إلى أصحابها.

هذا، وإذا جمع المبلغ المطلوب كله بواسطة الاكتتاب العام، فإن كل مبلغ صغير منه سيكون مضموناً بالأعداد الكثيرة من المبالغ الصغيرة الأخرى.

إن هذا كله سيحتاج بالطبع إلى مساعدة صريحة، أكيدة من الحكومات المعنية.

رابعاً: الجماعات المحلية

هجرتنا عبر الحدود

اقتصرت الفصول السابقة على كيفية تنفيذ مخطط الهجرة بشكل لا يخلق أي اضطراب اقتصادي. لكن حركةً بهذه الضخامة لا يمكن إلا أن تحدث إثارة محتمة لمشاعر عميقة عارمة. ثمة أعراف قديمة وذكريات قديمة تشدنا إلى بيوتنا. إن لدينا مهداً هنا ومهداً هناك، قبراً هنا وقبراً هناك، ونحن وحدنا نعرف مدى تعلق قلوب اليهود بالقبور. إننا سنحمل مهودنا معنا، ففيها مستقبلنا وردياً وباسماً. أما قبورنا العزيزة على قلوبنا فلا مناص من تركها - وأظن أن هذا الترك سيكلفنا غالياً أكثر من أية تضحية أخرى. ولكن، لا بد مما ليس منه بد.

إن العوز الاقتصادي والضغط السياسي والخزي الاجتماعي قد ساقتنا أصلاً بعيداً عن ديارنا وبعيداً عن قبورنا. ونحن اليهود نتنقل باستمرار، حتى في الوقت الحاضر، من مكان إلى مكان. وثمة تيار قوي يحملنا غرباً عبر البحر إلى الولايات المتحدة، وحضورنا فيها غير مرغوب فيه كذلك. فأين سيكون حضورنا مرغوباً فيه طالما كنا أمة مشردة؟ أمة بلا وطن؟

لكننا سنعطي شعبنا وطناً. وسنعطي هذا الوطن لا باقتلاع الشعب بلا رحمة من تربته التي تمده بأسباب الحياة **بل بازدراعه بعناية في** أرض أفضل. وكما نرغب بخلق علاقات سياسية واقتصادية جديدة، فإننا

كذلك سنحافظ على الماضي كله باعتباره مقدساً فهو عزيز على قلوب شعبنا.

لذا سيكون كافياً تقديم بضعة مقترحات، فهذا الجزء من مخططي سوف يدان في أغلب الظن باعتباره وهمياً. ومع أن هذا الجزء ممكن وواقعي فهو يبدو الآن غامضاً وبلا هدف. إن التنظيم سيجعله شيئاً عقلانياً.

الهجرة جماعات جماعات

على شعبنا أن يهاجر جماعات من الأسر والأصدقاء، إنما لن يجبر أحد على الانضمام إلى جماعة بعينها تنتمي إلى مكان إقامته السابق. سيكون بوسع كل فرد أن يسافر بالطريقة التي يختارها حالما يسوّي شؤونه. وبما أن المسافر سيدفع نفقاته بنفسه سواءً أخذ القطار أم السفينة، فإنه بطبيعة الحال سيسافر بالدرجة التي تناسبه. وربما لن يكون هناك تقسيم لدرجات السفر في القطار والسفينة، حرصاً على ألا يشعر الفقراء بمركزهم شعوراً حاداً خلال رحلتهم الطويلة. ومع أننا لا نقوم بتنظيم سفرة للمتعة الخالصة، إلا أن من المناسب أيضاً الإبقاء على روح المرح لديهم في الطريق.

لن يسافر أحد بفقر مدقع؛ أما الذين يرغبون بالسفر على نحو مترف فلهم ما يشاؤون. إن الحركة لن تقوم، في أحسن الظروف، بالتوجه إلى طبقات معينة من اليهود مدة سنوات قادمة؛ ومن الممكن لذلك استخدام هذه الفترة الفاصلة لاختيار أحسن الطرق لتنظيم الرحلات. وبوسع الميسوري الحال أن يسافروا على شكل فريق إذا رغبوا بذلك مستصحبين معهم أصدقاءهم ومعارفهم الشخصيين. إن اليهود، باستثناء الأغنياء منهم، لا يربطهم على أية حال إلا القليل من التواصل مع المسيحيين. وتقتصر معرفتهم بهم في بعض الأقطار على قلة من الطفيليين والمستقرضين ومَن هم عالة على غيرهم، وهم لا يعرفون شيئاً

عن أخيار المسيحيين. إن الغيتو لم يزل باقياً وإن كانت جدرانه قد تهاوت.

لهذا سيقوم أفراد الطبقات الوسطى بالإعداد للمغادرة بشكل مفصل ودقيق. ستتألف مجموعة من المسافرين في كل حي، أما في البلدان الكبيرة المقسمة إلى مناطق فستتألف مجموعة في كل منطقة منها، وستتصل إحداها بالأخرى بواسطة ممثلين يجري اختيارهم لهذا الغرض. وهذا التقسيم إلى مناطق لا ينبغي التمسك به حرفياً. فهو لا يرمي إلا إلى التخفيف من الضيق والحنين اللذين يشعر بهما الفقراء خلال رحلتهم إلى الخارج. إن الجميع أحرار في أن يسافر أحدهم بمفرده أو بصحبة المجموعة المحلية التي يفضلها شخصياً. أمّا شروط السفر - التي توضع بحسب الدرجات - فتطبّق على الجميع. وبوسع أي فريق من المسافرين استئجار قطار خاص أو باخرة خاصة من الشركة إذا كان عددهم يكفي لذلك.

ستقوم وكالة الإسكان التابعة للشركة بتوفير السكن للمدقعين عند وصولهم. وفي ما بعد، حين يأتي مهاجرون ميسورون، فستلبى حاجاتهم الواضحة للسكن فور الوصول فنادق بنيت بواسطة مشاريع خاصة. أما بعض المستوطنين الأكثر غنى فسيكونون قد شيدوا بيوتهم قبل أن يصبحوا مستوطنين دائمين، بحيث ينتقلون فقط من بيت قديم إلى آخر جديد.

سيكون مهيناً للأذكياء إرشادهم بشأن كل ما عليهم أن يفعلوه. إن كل فرد يربط نفسه **بالفكرة القومية** سيعرف كيف ينشرها وكيف يجعلها شيئاً واقعياً في دائرة نفوذه. إننا سنطلب أولاً وقبل كل أي شيء آخر التعاون من كهنتنا.

كهنتنا

سيكون لكل مجموعة من المجموعات حاخام خاص بها يسافر مع رعيته. وستلتف المجموعات المحلية في ما بعد كلٌ حول حاخامها بشكل

طوعي، وسيكون لكل حي زعيمه الروحي. إن حاخاماتنا، وهم الذين نتوجه إليهم بشكل خاص، سيكرسون طاقاتهم لخدمة فكرتنا، وسيحثون المصلين بالتبشير بها من منبر الكنيس. إنهم لن يكونوا بحاجة إلى الدعوة إلى اجتماعات خاصة لهذا الغرض، وإن مناشدة كهذه يمكن تُطلق في الكنيس. وهكذا يجب أن تتحقق الفكرة. ذلك أننا لا نشعر بوشيجتنا التاريخية إلا من خلال ديانة آبائنا وأجدادنا، كما كنا قد استوعبنا لغات الأمم الأخرى إلى درجة لا تمحى.

والحاخامون سيتلقون الرسائل بانتظام من الجمعية والشركة معاً، وسيعلنونها ويشرحونها لرعيتهم. إن إسرائيل ستصلّي من أجلنا وتصلي لنفسها.

ممثلو المجموعات المحلية

ستقوم المجموعات المحلية بتعيين لجان صغيرة تتألف من عدد من الممثلين برئاسة الحاخام، وتتولى هذه اللجان مناقشة الشؤون المحلية وتسويتها.

ستنقل المؤسسات الخيرية بواسطة الجماعات المحلية العائدة لها، فتبقى المؤسسة «هناك» ملكاً للجماعة نفسها التي تأسست المؤسسة من أجلها أصلاً. ومن رأيي ألا تباع المباني القديمة بل تخصص لمساعدة المعوزين المسيحيين في البلدان المتروكة. إن الجماعات المحلية ستتلقى تعويضاً وذلك بالحصول مجاناً على مواقع بناء في القطر الجديد مع المرافق الأخرى اللازمة للإنشاءات.

هذا النقل للمؤسسات الخيرية سيتيح فرصة أخرى من تلك الفرص، التي تسنح في مراحل مختلفة من مخططي، للقيام بتجربة في خدمة للإنسانية. إن أعمال الخير الخاصة تجري بشكل غير نظامي في الوقت الحاضر ولا تتناسب نفقاتها الكثيرة مع ما تقوم به. لكن هذه المؤسسات الخيرية يمكن، بل يجب، أن تشكل جزءاً من نظام تكمّل فيه،

في آخر الأمر، إحدى المؤسسات. إن من الممكن في مجتمع جديد أن تنبع هذه المنظمات من إدراكنا العصري، وقد تقوم على أساس التجارب الاجتماعية السابقة كلها. إن هذا الأمر له أهمية كبرى لنا بالنظر إلى العدد الكبير من فقرائنا. إن ضعاف النفوس منا، وقد أحبطتهم الضغوط الخارجية وأفسدتهم صدقات الأغنياء، ينحدرون بسهولة إلى أن يتجهوا إلى التسوّل.

إن المجتمع، بدعم من الجماعات المحلية، سيولي الاهتمام الأكبر للتثقيف الشعبي في هذا المجال. وسيخلق هذا المجتمع تربة خصبة لطاقات عديدة تهدر الآن من دون أن ينتفع بها أحد. إن من يبدي رغبة حقيقية في العمل سيتم استخدامه في المكان المناسب. والمتسولون لن يطاق أمرهم. ومن يرفض العمل بصفته إنساناً حراً سيرسل إلى الإصلاحيات.

من جهة أخرى فإننا لن نحيل الشيوخ إلى دار العجزة، فدار العجزة هي أقسى نوع من أنواع الإحسان التي اخترعتها طيبتنا السخيفة. إن شيوخنا يموتون هناك عاراً وخزياً. إنهم هناك مدفونون أصلاً. لكننا سنتيح حتى للأغبياء منهم الوهم المريح لتخيل منفعتهم في العالم. سنعهد لغير القادرين على العمل البدني مهمات سهلة إذ يجب أن نحسب حساباً لتدهور الحيوية لدى الفقراء الذين هم من جيل موهن أصلاً. أما أجيال المستقبل فسيجري التعامل معها بشكل مختلف، وستنشأ بأحضان الحرية من أجل حياة الحرية وإعداداً لها.

إننا سنسعى حثيثاً لكي نهب الخلاص المعنوي الكامن في العمل للجميع من الأعمار كلها والطبقات كافة؛ وهكذا سيعثر شعبنا على قوته من جديد في أرض العمل التي يومها سبع ساعات.

خطط لبناء المدن

تقوم الجماعات المحلية بتخويل ممثليها المأذونين باختيار مواقع

المدن. وستتخذ الحيطة اللازمة عند توزيع الأراضي لتنفيذ نقل دقيق إليها مع الأخذ بالاعتبار الحقوق المكتسبة.

ستكون لدى الجماعات المحلية خطط لبناء المدن لكي يعلم أهلونا مقدماً إلى أين هم ذاهبون، وفي أية بلدة سيقيمون وفي أي بيت سيسكنون. وسنوزع نسخ مفصلة من خطط المباني على الجماعات المحلية.

إن المبدأ الذي ستسير عليه إدارتنا هو مبدأ المركزية الصارمة، أما الذي تسير عليه الجماعات المحلية فهو الاستقلال الذاتي الكامل. بهذه الطريقة سيتم النقل بأقل عناء.

أنا لا أتخيل أن هذا كله هو أسهل مما هو في الواقع؛ ومن جهة أخرى، على الناس ألا يتخيلوا أنه أصعب مما هو في حقيقته.

مغادرة الطبقات الوسطى

سيجري استدراج الطبقات الوسطى بشكل طوعي إلى تيار الخروج، ذلك أن أبناءها سيكونون موظفين في الجمعية أو مستخدمين في الشركة «هناك». إن رجال القانون والأطباء والفنيين من شتّى الأصناف ورجال الأعمال الشباب - بل اليهود كلهم الذين يبحثون عن فرص، ويفرون الآن من الاضطهاد في بلادهم الأصلية ليكسبوا الرزق في أرض أجنبية - هؤلاء سيجتمعون على تربة تحفل بالرجاء المنصف. أما بنات الطبقات الوسطى فسيتزوجن من هؤلاء الرجال الطموحين. هذا وسيأتي أحدهم بزوجته وآخر بخطيبته لتأتي إليه، وسيأتي ثالث بأبويه وإخوته وشقيقاته. إن الذين يعيشون في حضارة جديدة يتزوجون وهم بسن الشباب. وهذا يرفع من شأن الأخلاق العامة ويضمن القوة في الجيل الجديد؛ فلا تكون لدينا ذرية مائعة من نسل زيجات متأخرة، ولا أنجال لآباء بددوا قوتهم في الكفاح من أجل الحياة.

إن كل مهاجر من أبناء الطبقة الوسطى سيسحب وراءه عدداً من نوعه.

والأكثر إقداماً من هؤلاء سيحصل على أحسن ما في العالم الجديد.

وهنا يبدو أننا وصلنا بلا ريب إلى الصعوبة الحاسمة في خطتي.

فحتى لو أننا نجحنا في فتح باب المناقشة على مستوى العالم وبشكل جدي في المسألة اليهودية.

وحتى لو قادنا هذا الحوار إلى نتيجة إيجابية مفادها أن الدولة اليهودية ضرورية للعالم.

وحتى لو ساعدتنا الدول العظمى على اكتساب السيادة على قطعة من الأرض.

فكيف لنا أن ننقل جماهير اليهود من أوطانهم الحالية إلى هذا القطر الجديد من دون إكراه؟

ألم نقل إن المقصود أن تكون هجرتهم طوعية؟

الظاهرة الجماهيرية

ليس من الضروري بذل جهود كبيرة لتحفيز الحركة، فاللاساميون كفيلون بتوفير الدافع المطلوب. ما عليهم إلا أن يفعلوا ما فعلوه سابقاً، وعندئذٍ سيخلقون رغبة بالهجرة عندما لا تكون هذه الرغبة موجودة سابقاً، ويعززونها عندما تكون موجودة من قبل. إن اليهود الباقين الآن في أقطار لاسامية إنما يظلون باقين لأنهم يعرفون، هم وحتى الجاهلون منهم بالتاريخ، أن التغيير المتعدد في أماكن إقامتهم في القرون الخالية لم يأتهم بخير دائم. إن أي بلد يرحب باليهود اليوم ويقدم لهم منافع هي حتى أقل من المنافع التي تقدمها الدولة اليهودية، إذا نشأت، سيضمن وجودهم ويجتذب على الفور تدفقاً كبيراً من الناس. إن المدقعين الذين ليس لديهم ما يخسرونه سيجرّون أنفسهم جراً يستثير الرغبة بالهجرة حتى في أوساط الشرائح الميسورة في المجتمع. والآن تكفي الشرائح الفقيرة وحدها لتأسيس دولة، فهي تشكل أقوى مادة إنسانية لاكتساب أرض، فقليل من اليأس لا غنى عنه للقيام بمهمة عظمى.

هذا، وحين يعمل «اليائسون المستميتون» منا على رفع قيمة الأرض

بوجودهم عليها وبالكد الذي يبذلونه فيها فإنهم يجعلونها جذابة بشكل متزايد كمكان لاستيطان الميسورين.

وهكذا تشعر الشرائح الأعلى فالأعلى بالإغراء إلى الذهاب. إن حملة المستوطنين الأوائل من الفقراء ستدار من قبل الشركة والجمعية بالاشتراك، ولعلها ستدعم أيضاً دعماً إضافياً من جمعيات الهجرة والجمعيات الصهيونية القائمة.

كيف يمكن توجيه عدد من الناس نحو مكان معين من دون إصدار أوامر صريحة بالذهاب إليه؟ هناك محسنون يهود كثيرون يحاولون التخفيف من معاناة اليهود من خلال تجارب صهيونية. وقد واجه هؤلاء المشكلة المشار إليها وظنوا أن حلها يكون بإعطاء المهاجرين نقوداً ووسائل عمل، ولسان حالهم يقول: «لقد دفعنا لهؤلاء الناس ليذهبوا إلى هناك».

إن هذا إجراء خاطىء تماماً، وإن أموال العالم كلها لن تحقق الغرض المنشود.

أما الشركة فستقول: «إننا لن ندفع لهم، بل سنجعلهم هم يدفعون لنا. إننا لن نقدم لهم سوى بعض الإغراءات للذهاب».

سأضرب مثلاً خيالياً يجعل المعنى الذي أريده أكثر وضوحاً. فلنفرض أن أحد هؤلاء المحسنين (وسأسميه «البارون»)، وأنا نرغب بجلب جمهرة من الناس إلى ساحة سباق (Longchamps) بالقرب من باريس، عصر يوم حار من أيام الأحد. إن البارون يعدهم بدفع عشرة فرنكات للشخص الواحد، فيستطيع بدفع مئتي ألف فرنك أن يأتي بعشرين ألفاً من التعساء المتصببين عرقاً، الذين سيشتمونه لما سببه لهم من هذا الإزعاج الشنيع. أما أنا فسأعرض هذا المبلغ وقدره مئتا ألف فرنك جائزة لأسرع فرس في سباق الخيل ـ وعندئذٍ سيكون عليّ أن أضع الحواجز لمنع الناس من دخول الساحة، وسيدفعون للدخول إليها فرنكاً أو خمسة فرنكات أو عشرين فرنكاً.

ستكون النتيجة أنني جئت بنصف مليون شخص إلى الساحة؛ ويمر رئيس الجمهورية بسيارته؛ وسيتمتع الجمهور كثيراً. وسيشعر معظمهم أنها كانت نزهة لطيفة سيراً على الأقدام في الهواء الطلق بالرغم من الحر والغبار؛ وسأكون أنا قد حققت بمبلغي وقدره مئتا ألف فرنك ما يناهز المليون من رسوم الدخول وضريبة المراهنة. إني سآتي بالناس أنفسهم إلى هناك متى شئت، لكن البارون لن يستطيع ذلك بأية حال.

فلأضرب مثلاً آخر أكثر جدية عن الظاهرة الجماهيرية يكسب فيها الجمهور رزقاً. فليحاول أي شخص أن ينادي في شوارع المدينة: «إنّ من يكون مستعداً للوقوف طوال النهار في زمهرير الشتاء وقيظ الصيف في قاعة من حديد مكشوفة الجوانب فيخاطب من هناك المارة ويعرض عليهم أنواعاً شتّى من السلع الغريبة أو الأسماك أو الفواكه، ويتقاضى لقاء ذلك قطعتي فلورين أو أربعة فرنكات أو ما يقارب ذلك».

فكم من الناس سيذهب إلى القاعة؟ وكم من الأيام سيقاومون وقد ساقهم الجوع إلى هناك؟ وإذا قاوموا فأية طاقة سيظهرونها في محاولتهم إقناع المارة بشراء السمك أو الفاكهة أو سلع الزينة؟

إننا سنعالج الأمر بشكل مختلف. سنقوم في الأمكنة التي تنشط فيها التجارة، وهي أمكنة سنكتشفها بسهولة لأننا نحن الذين نوجه التجارة أيان نشاء، أقول سنقوم ببناء قاعات كبيرة في هذه الأمكنة ونسميها أسواقاً. قد تكون هذه القاعات أسوأ بناء من تلك المذكورة آنفاً وأشد كراهة، ومع ذلك سيقصدها الناس زرافات. لكننا سنبذل أقصى جهودنا وسنبنيها أفضل وأجمل من الأولى. إن أهلنا من رجال الأعمال الجادين المبدعين الذين لا نعدهم بشيء، وإلا سنخدعهم، سيخلقون بجذل تبادلاً تجارياً نشطاً إنهم سيخاطبون المشترين بلا كلل أو ملل، وسيظلون واقفين على أقدامهم ونادراً، يفكرون بالتعب. إنهم سيسارعون إلى العمل يوماً بعد يوم لكي يكونوا أول الواصلين؛ وسيشكلون النقابات

والكارتيلات وأي شيء آخر من أجل مواصلة كسب الرزق من دون أن يثنيهم القلق. ولئن وجدوا في نهاية النهار أن عملهم الشاق كله لم يأتهم سوى بدريهمات معدودات، فإنهم مع ذلك سيتطلعون بأمل إلى اليوم التالي لعله يأتيهم بحظ أفضل.

لقد أعطيناهم أملاً.

هل سيسأل أحد من أين يأتي الطلب لخلق السوق؟ هل من الضروري حقاً أن نخبره مرة أخرى؟

أشرت سابقاً أن المردود سيزداد بمقدار خمسة عشر ضعفاً. فالمليون الواحد ينتج خمسة عشر مليوناً، وألف مليون تنتج خمسة عشر ألفاً من الملايين.

قد يصدق هذا على نطاق صغير، فهل يصدق على نطاق واسع؟ إن من المعروف أن رأس المال يعطي مردوداً متناقصاً في النسبة العكسية لنموه. هذا بالنسبة إلى رأس المال غير العامل والجامد فهو يعطي مثل هذا المردود المتناقص، أما رأس المال العامل فيأتي بمردود متزايد بشكل رائع. وهنا تكمن المسألة الاجتماعية.

هل أقرر حقيقة؟ أنا أستشهد بأغنى أغنياء اليهود على صدق قولي. لماذا يقوم هؤلاء بإنشاء صناعات مختلفة متعددة جداً؟ لماذا يرسلون العمال إلى باطن الأرض لإخراج الفحم وسط أخطار هائلة لقاء أجر ضئيل؟ ولا أظن أن هذا عمل لطيف حتى بالنسبة إلى أصحاب المناجم. ذلك انني لا أعتقد أن الرأسماليين لا قلوب لهم، ولا أقول هذا تصنعاً. إن رغبتي ليست إبراز الاختلافات وإنما تذليلها.

هل من الضروري أن أصور الظاهرة الجماهيرية وتركزها في موقع بعينه، وذلك بإشارات إلى الحجاج التقاة؟

لا أريد أن أجرح الحساسية الدينية لأي أحد بالتفوه بكلمات قد يساء تأويلها.

سأشير فقط باقتضاب شديد إلى الحجاج المحمديين إلى مكة، والحجاج الكاثوليكيين إلى لورد (Lourdes) وإلى عدد آخر من المواقع التي يعود منها الناس وقد أضفت ديانتهم الراحة عليهم، وإلى الصخرة المقدسة في (Trier). بذلك سنخلق كذلك مركزاً للحاجات الدينية العميقة لشعبنا. سيكون أول من يفهمنا هم كهنتنا، وسيكونون معنا في هذا.

إننا سندع كل إنسان يجد الخلاص «هناك» بطريقته الخاصة به. وسنفسح في المجال أولاً وقبل كل شيء للزمرة الخالدة من مفكرينا الأحرار الذين ما فتئوا يفتحون فتوحات جديدة للإنسانية.

لن تمارس أية قوة على أي أحد إلا ما هو ضروري للحفاظ على الدولة والنظام؛ ولن يجري تحديد شكل القوة المطلوبة بشكل اعتباطي من هذه السلطة المتبدلة أو تلك؛ إنما سيحدد شكلها بقوانين صارمة.

هذا، وإن أعطت الأمثلة التي ضربتها انطباعاً لدى الناس أن الجماهير إنما تستدرج موقتاً فقط إلى مراكز الدين، أو العمل، أو التسلية، فإن الردّ على اعتراضهم سيكون بسيطاً. ففيما يكون من شأن موضوع بمفرده أن يستهوي بذاته الجمهور فإن المراكز كلها مجتمعةً إنما ترمي بشكل محسوب إلى الاستمساك بأفراد الجمهور واسترضائهم. ذلك أن هذه المراكز كلها تشكل موضوعاً واحداً، عظيماً، سُعي إليه من زمن بعيد، وقد تشوّق شعبنا دائماً منذ أمد بعيد إلى بلوغه، ومن أجله أبقى على نفسه حياً، ومن أجله جرى الإبقاء على الموضوع حياً بضغط خارجي - وطن حر! عندما تبدأ الحركة بالعمل سنجر البعض خلفنا وندع الآخرين يتبعوننا؛ وسيجرف التيار غيرهم حتى تندفع البقية الباقية وراءنا.

إن هؤلاء المستوطنين المترددين الذين هم آخر القادمين سيكونون

الأسوأ حالاً، سواء هنا أو هناك.

أما أول المستوطنين الذين يأتون وقد تحلوا بالإيمان والحماس والشجاعة فسيحظون بأفضل المراكز.

مادتنا البشرية

هناك في الخارج من الأفكار الخاطئة عن اليهود أكثر منها عن أي شعب آخر. ولقد أصبحنا على درجة من الاكتئاب والإحباط بفعل معاناتنا التاريخية بحيث صرنا نحن أنفسنا نكرر هذه الأفكار الخاطئة ونعتقد بها. من هذه الأفكار ما يزعم أننا نحب الأعمال حباً مفرطاً.

إلا أن من المعروف جيداً أننا كلما أتيح لنا أن نشترك في رفع شأن الطبقات فإننا لا نتردد في التخلي عن حرفنا. إن الغالبية الساحقة من رجال الأعمال اليهود يعلمون أبناءهم تعليماً راقياً. ومن هنا جاء ما يسمى بـ«تهويد» المهن الفكرية كلها. هذا، وحتى في الدرجات الدنيا اقتصادياً في المجتمع فإن حبنا للتجارة ليس ذلك الحب العارم كما يظن. ففي أقطار أوروبا الشرقية هناك عدد كبير من اليهود ليسوا في عداد التجار، كما أنهم كذلك لا يتهيبون من العمل الشاق. سيكون بوسع جمعية اليهود أن تعد إحصاءات دقيقة علمياً عن قوانا البشرية. إن المهمات والإمكانات الجديدة التي تنتظر شعبنا في القطر الجديد ستكون مرضية لأبنائنا من الحرفيين الحاليين، كما أنها ستحول عدداً من صغار التجار الحاليين إلى عمال يدويين.

إن البائع المتجول الذي يتنقل في أرجاء البلاد وعلى ظهره حمله الثقيل ليس بتلك الدرجة من الرضا كما يتخيل مضطهدوه. إن يوم العمل البالغ سبع ساعات سيحول هذا الصنف من الباعة المتجولين بأسره إلى عمال. إنهم أناس طيبون ويساء فهمهم، ولعلهم يعانون الآن معاناة تفوق الآخرين جميعاً. هذا وستعمل جمعية اليهود منذ البداية على تدريبهم

كحرفيين ماهرين. أما حبهم للكسب فسوف يشجع بطريقة سليمة. إن اليهود ذوو نزعة مقتصدة وقابلة للتكيف ويمتلكون مشاعر عائلية قوية. إن مثل هؤلاء الناس مؤهلون لأية وسيلة من وسائل كسب الرزق، الأمر الذي سيجعل أعمال المتاجرة البسيطة أعمالاً غير مجزية، ويجعل حتى الباعة المتجولين الحاليين يتخلون عن عملهم بالمرة. من الممكن، على سبيل المثال، تحقيق ذلك عن طريق تشجيع المخازن الكبرى التي توفر ضرورات الحياة كلها، وهي أصلاً تقوم بسحق الأعمال التجارية الصغيرة في المدن الكبيرة. إن هذه الأعمال لن تكون موجودة على الإطلاق في بلدان الحضارة الجديدة. ومن منافع تأسيس تلك المخازن الكبرى أنها تجعل القطر قابلاً للسكن في الحال بالنسبة إلى الذين يتطلبون من ضرورات الحياة ما هو أرقى.

العادات

هل ينسجم التنويه بالعادات البسيطة التي درج عليها الناس العاديون بالطبيعة الجادة لهذا الكتيب؟

أجل، أظن ذلك، بل إنه مهم للغاية، فهذه العادات البسيطة هي الخيوط الدقيقة التي لا تعد ولا تحصى التي منها يصنع الحبل الذي لا ينقطع.

وهنا يجب طرح بعض الأفكار المحدودة جانباً. إن من اطلع على شيء من شؤون العالم يدرك أن هذه الأعراف اليومية البسيطة يمكن ازدراعها بسهولة في كل مكان. إن المخترعات الفنية في عصرنا، والتي ينوي هذا المخطط استخدامها خدمةً للإنسانية، قد استعملت حتى الآن بشكل أساسي من أجل عاداتنا البسيطة. هناك فنادق إنكليزية في مصر وعلى ذرى الجبال في سويسرا، ومقاهٍ فييناوية في جنوب افريقيا، ومسارح فرنسية في روسيا، ودور أوبرا ألمانية في أمريكا، وأفضل أنواع البيرة البافارية في باريس.

إننا حين نرحل من مصر مرة أخرى لن نترك وراءنا ما هو مترف لدينا.

إن كل شخص سيجد أعرافه من جديد في الجماعات المحلية، لكنها ستكون أحسن وأجمل وألطف مما كانت عليه سابقاً.

خامساً: جمعية اليهود و«دولة اليهود»

تدبير المفاوضات

هذا الكتيب غير موجه إلى رجال القانون، لذا فأنا لا أنوّه إلا عرضاً بنظريتي بشأن الأساس القانوني للدول، شأني في ذلك شأن التعليق على العديد من الأمور الأخرى.

مع ذلك عليّ أن أشدد بعض الشيء على نظريتي الجديدة التي يمكن الدفاع عنها بنظري حتى عند مناقشة المتضلعين في فقه القانون.

إن الدولة، بحسب رأي روسو، وهو رأي يعتبر الآن عتيقاً، إنما تتشكل بموجب عقد اجتماعي. كان روسو يرى «أن شروط هذا العقد قد حددت بدقة بواسطة طبيعة الاتفاق بحيث ان أي تغيير سيجعل هذه الشروط لاغية. والنتيجة هي أن الشروط، حتى إن لم تدون صراحةً، متماثلة في كل مكان، ومقبولة ضمناً ومعترف بها ضمناً في كل مكان»... إلخ.

لم يكن من الصعب قط في السابق، ولا هو صعب الآن، دحض نظرية روسو منطقياً وتاريخياً، مهما تكن آثار هذا الدحض فظيعة وبعيدة المدى. والمسألة هي هل عقد اجتماعي «ذو شروط لم تدون صراحة، ومع ذلك فهي غير قابلة للتغيير»، كان موجوداً قبل سن الدستور، هو شكل لا تعنى به الدول عملياً في ظل الأشكال الحديثة للحكومة؟ وعلى أية حال فإن العلاقة القانونية بين الحكومة والمواطنين هي علاقة ثابتة الأركان بوضوح الآن.

لكن، قبل سن الدستور وخلال تشكيل الدولة الجديدة تتخذ هذه المبادىء أهمية عملية كبيرة. إننا نعرف ونشاهد بأنفسنا أن الدول ما فتئت تتشكل. فالمستعمرات تنفصل عن القطر الأم. والكيانات التابعة تنشق عن سيدها الأعلى، والأراضي التي تحررت حديثاً من قيودها تتشكل في الحال على شكل دول حرة. صحيح أن الدولة اليهودية يجري تصورها كهيكل عصري بشكل فريد يقوم على أرض غير معلومة، لكن الدولة إنما تتشكل لا بقطع من الأرض بل بعدد من الرجال يتّحدون في ظل حكم ذي سيادة.

إن الشعب هو الأساس الشخصاني للدولة، والأرض هي الأساس اللاشخصاني لها، والأساس الشخصاني هو الأهم بين الاثنين. مثلاً، ثمة سيادة ليس لها أساس موضوعي على الإطلاق ولعلها محترمة أكثر من أية سيادة أخرى في العالم، وهي سيادة البابا.

إن النظرية المقبولة في علم السياسة اليوم هي نظرية العقلانية. هذه النظرية تكفي لتبرير إنشاء الدولة ومن غير الممكن دحضها تاريخياً كما تدحض نظرية العقد الاجتماعي. وبما أنني معني فقط بإنشاء دولة يهودية فأنا ضمن حدود نظرية العقلانية، ولا أتجاوز هذه الحدود إلا حين أتطرق إلى الأساس القانوني للدولة: إن نظرية الحق الإلهي أو نظرية وجود قوة عليا أو نظرية العقد الاجتماعي أو النظرية الأبوية أو الإرثية تتفق مع الآراء الحديثة. ويكون السعي للعثور على الأساس القانوني للدولة إما في داخل إطار البشر بشكل أكثر مما ينبغي (مثل النظرية الأبوية ونظرية وجود قوة عليا ونظرية العقد الاجتماعي)، أو فوق إطار البشر (مثل نظرية الحق الإلهي) وبشكل أعلى مما ينبغي، أو دون البشر بشكل أدنى مما ينبغي (مثل النظرية الإرثية الموضوعية). أما نظرية العقلانية فتترك هذه المسألة من دون جواب. لكن مسألةً شغلت فقهاء القانون في كل عصر لا يمكن أن تكون مسألة تافهة تماماً. وواقع الأمر أن مزيجاً من العناصر البشرية والعناصر الإلهية يدخل في تكوين الدولة. إن أساساً قانونياً للدولة لا

غنى عنه لتفسير العلاقة الظالمة نوعاً ما التي تقوم أحياناً بين الحاكم والمحكوم. وفي رأيي أن هذا الأساس موجود في تدبير المفاوضات (Negotiorum Gestio) حيث يمثل مجموع المواطنين (Dominus Negotiorum)السلطة التفاوضية وتمثل الحكومة المدبر (Gestor).

إن الرومان استطاعوا، بما كانوا يتمتعون به من حسن العدالة، أن ينتجوا هذه المأثرة النبيلة المسماة تدبير المفاوضات. وبمقتضاها، إذا تعرضت ممتلكات شخص مظلوم للخطر يكون بوسع أي إنسان أن يتدخل لإنقاذها. يسمى هذا الإنسان (The Gestor)، أي المدبّر لشؤون لا تخصه(*). إنه لم يتسلم مذكرة استدعاء من أحد، إنما يخوله التزام أعلى لكي يتدخل. وقد يصاغ هذا الالتزام الأعلى بطرق مختلفة بالنسبة إلى الدولة لكي يستجيب مع الدرجات الثقافية للأفراد، التي يحققونها بواسطة قوة الإدراك العامة المتنامية. إن التدبير (Gestio) يعمل لخير الشعب (Dominus) الذي ينتمي إليه المدبر (Gestor).

يقوم المدبر بإدارة الممتلكات التي يعتبر مالكاً لها بالاشتراك، وملكيته المشتركة هذه تجعله يعرف ما الذي يتطلب منه التدخل، وهي تتطلب منه القيادة في السلم أو الحرب؛ لكن صلاحيته لا تكون، في أي ظرف من الظروف، صحيحة كملكية مشتركة. إن قبول العديد من المالكين المشتركين يعتبر، حتى في أحسن الظروف، أمراً متروكاً للحدس والتخمين.

تتأسس الدولة بكفاح الأمة من أجل الوجود. وفي مثل هذا الكفاح يكون من المستحيل الحصول على سلطة صحيحة مسبقاً وبشكل يعتمد على الظروف. والواقع أن أية محاولة مسبقة للحصول على قرار اعتيادي من الأغلبية قد تقضي على المهمة في مهدها. ذلك إن الانقسامات الداخلية ستجعل الشعب بلا حول ولا طول أمام الأخطار

(*) وهذا شبيه بنظام الحسبة في عهود إسلامية ماضية [المترجم].

الخارجية. إننا لا يمكن أن نكون جميعاً من رأي واحد، لذا فإن المدبر سيتولى القيادة بنفسه ويمضي قدماً إلى الأمام.

إن عمل المدبر التابع للدولة مطلوب جداً إذا كانت القضية المشتركة معرضة للخطر، وإذا كان هناك ما يحول دون الشعب ومساعدة نفسه سواءً بسبب الافتقار للإرادة أو من جراء أي سبب آخر.

لكن المدبر يصبح مماثلاً للشعب بتدخله، وهو ملزم بالاتفاق (quais ex contractu). هذه هي العلاقة الموجودة قبل الدولة، أو الأصح، التي نشأت مع الدولة في الوقت ذاته.

وهكذا يصبح المدبر مسؤولاً عن أي شكل من أشكال الإهمال، وحتى عن فشل مشاريع الأعمال وعن إهمال الشؤون المتصلة بها اتصالاً وثيقاً... إلخ. ولن أتوسع كثيراً في تدبير المفاوضات بل أترك الأمر للدولة، وإلا سنبتعد كثيراً عن الموضوع الأساسي. سأقول ملاحظة واحدة فقط: «إن إدارة العمل، إذا صادق عليها المالك، تكون نافذة كما لو أنها قد جرت في الأصل بتخويل منه».

وكيف يؤثر هذا كله في حالتنا؟

إن الشعب اليهودي في الوقت الحاضر يمنع من تصريف شؤونه السياسية ذاتها بحكم وجوده في الشتات. وهو، إلى جانب هذا، في حالة من الأسى العظيم في العديد من أنحاء العالم. إنه يحتاج بالدرجة الأولى إلى مدبّر. والمدبّر لا يمكن، بالطبع، أن يكون فرداً أوحد. فهذا الفرد إما أن يجعل من نفسه أضحوكة، أو مدعاة للازدراء لأنه سيبدو وكأنه يعمل من أجل مصالحه الخاصة.

لذا يجب أن يكون مدبر اليهود هيئة مشتركة.

وهذه هي جمعية اليهود.

مدبر اليهود

سنتناول أخيراً هذا الذراع للحركة الوطنية وطبيعته ووظائفه، وهو الذي سيؤسس في واقع الأمر قبل تأسيس أي شيء آخر. إن تشكيله

سهل للغاية. إنه سيتخذ شكله في أوساط اليهود ذوي الحيوية والنشاط الذين أدليت لهم بمخططي في لندن(*).

إن جمعية اليهود هي نقطة الانطلاق للحركة اليهودية برمتها التي هي على وشك البدء بالعمل.

سيكون للجمعية مهمات علمية وسياسية، ذلك أن تأسيس دولة يهودية يفترض مسبقاً تطبيق طرق علمية. إننا لا نستطيع الرحيل عن مصر اليوم بالطريقة البدائية التي كانت في الأزمان الخالية. إننا سنحصل مقدماً على أرقام دقيقة عن أعدادنا وقوتنا. إن مهمة المدبّر العظيم والقديم لليهود في الأيام البدائية له من العلاقة بأيامنا ما يشبه علاقة النغمة الجميلة بأوبرا عصرية. إننا نعزف النغمة ذاتها بعدد أكبر من الآلات الموسيقية مع إضاءة كهربائية زخرفية وفرق الإنشاد والملابس الجميلة وأشهر مغني العصر.

يرمي هذا الكتيب إلى فتح باب النقاش العام حول المسألة اليهودية، يشارك فيه الأصدقاء والأعداء على السواء، لكن لن يتخذ، كما أرجو، شكل السباب المقذع أو التبرير العاطفي، وإنما يكون مناقشة عملية، موسعة، جادة وسياسية.

ستقوم جمعية اليهود بجمع التصريحات التي يدلي بها الساسة وكذلك التي تصدر عن البرلمانات والجاليات اليهودية والجمعيات، سواء وردت على لسان الخطباء في الاجتماعات أو كتبت في الجرائد وغيرها من المطبوعات.

وهكذا ستكتشف الجمعية للمرة الأولى هل يرغب اليهود حقاً بالذهاب إلى أرض الميعاد وهل يجب عليهم الذهاب إلى هناك. هذا، وستقوم الجاليات اليهودية في العالم بإرسال إسهاماتها للجمعية لغرض جمع

(*) ألقى الدكتور هرتزل خطاباً في اجتماع عقد في النادي المسمى «نادي المكابيين»، وترأسه إسرائيل زانغويل في ٢٤ تشرين الثاني/نوفمبر ١٨٩٥.

إحصاءات شاملة عن اليهود.

أما المهمات الأخرى مثل قيام الخبراء باستقصاء أحوال القطر الجديد وموارده الطبيعية، ووضع تخطيط موحد للهجرة والاستيطان، وإجراء العمل التمهيدي للتشريع والإدارة وغير ذلك، فهي كلها يجب أن تنبع بشكل عقلاني من المخطط الأصلي.

وستحاول الجمعية على الصعيد الخارجي، كما أوضحت آنفاً في القسم العام، أن يعترف بها كجهة ذات سلطة لتشكيل دولة. إن القبول الحر للعديد من اليهود سيضفي على هذه الجهة الصلاحية المطلوبة في علاقاتها مع الحكومات.

أما على الصعيد الداخلي، أي علاقات الجمعية مع الشعب اليهودي، فالجمعية ستؤسس أولاً المؤسسات التي لا غنى عنها كلها، وستكون هذه هي النواة التي تتطور منها في ما بعد المؤسسات العامة للدولة اليهودية.

وكما قلت سابقاً فإن الغرض الأول هو السيادة على جزء من أرض العالم يكفي لتلبية متطلباتنا العادلة، ويضمن هذه السيادة القانون الدولي.

فما هي الخطوة التالية؟

احتلال الأرض

في الأزمان الغابرة كانت الأمم تجوب في بقاع الأرض على غير هدى وهم نهب للمصادفات، ترمي بهم هنا وهناك كأسراب الجراد، ثم يستقرون أينما كان بلا مبالاة. ففي تلك الأزمان لم تكن الأرض معروفة للإنسان. أما هذه الهجرة اليهودية الحديثة فيجب أن تسير وفقاً للمبادىء العلمية.

قبل أقل من أربعين سنة كان التنقيب عن الذهب يجري بطريقة

بدائية جداً، كما تشهد بذلك أيام المغامرات في كاليفورنيا! ما ان انتشر خبر الذهب حتى جاء المستميتون من كل حدب وصوب، فنهبوا الأراضي وسرقوا بعضهم بعضاً لاستلاب ما حازوه من الذهب ليبددوه على موائد القمار كما يفعل السراق.

أما اليوم فكيف يجري التنقيب عن الذهب في ترانسفال؟ ليس ثمة زمر مغامرة هناك، وإنما هناك من علماء الجيولوجيا والمهندسين من يقوم موقعياً بتنظيم صناعة الذهب واستخدام الآلات الحاذقة لفصل خامات المعدن النفيس من صخورها. لا يترك شيء للحظ اليوم.

وهكذا يجب علينا أن نستقصي القطر اليهودي الجديد ونتملكه بوسائل عصرية.

ما ان نؤمّن الأرض حتى نرسل سفينة عليها ممثلون عن الجمعية وعن الشركة وعن المجموعات المحلية الذين سيستحوزون عليها في الحال.

سيكون أمام هؤلاء ثلاث مهمات عليهم تنفيذها: (١) إجراء تحقيق علمي دقيق عن المصادر الطبيعية كلها في القطر؛ (٢) تنظيم إدارة مركزية صارمة، (٣) توزيع الأراضي. وهذه المهمات يتداخل بعضها مع بعض، وستنفذ كلها وفقاً للغرض المعروف الآن.

ثمة أمر واحد يحتاج إلى إيضاح وهو: كيف يجري احتلال الأرض بالنسبة إلى الجماعات المحلية؟

يجري احتلال الأراضي التي تفتح في أمريكا بطريقة ساذجة، إذ يتجمع المستوطنون على حدودها ثم يهرعون في الوقت المحدد وفي آن واحد وبشكل عنيف لأخذ حصصهم.

أما نحن فلن نسير على هذه الشاكلة في أرض اليهود الجديدة. إن قطع الأراضي في الأقاليم والمدن سيجري بيعها بالمزاد، ويدفع ثمنها، لا

نقداً وإنما بالقيام بالعمل. إن الخطة العامة تكون قد استقرت بشأن الشوارع والجسور ومحطات المياة وغير ذلك مما هو ضروري لحركة المرور. وهذه ستتصل بالأقاليم. وفي هذه الأقاليم سيجري بيع مواقع البلدات بالمزاد أيضاً. وسيكون على الجماعات المحلية أن تنذر نفسها لتقوم بتنفيذ هذه المهمة بشكل صحيح حتى إتمامها وتغطي الكلفة بواسطة تخمين الثمن المفروض ذاتياً. وستكون الجمعية في وضع يمكنها من تقدير الأمور فلا تدع الجماعات المحلية تقدم على تضحيات لا تتناسب مع إمكانياتها. سيكون من نصيب الجاليات الكبيرة الحصول على مواقع واسعة من أجل نشاطاتها. وهكذا ستكون مكافأة التضحيات الكبرى بإنشاء الجامعات والمدارس الفنية والأكاديميات ومعاهد البحوث وغيرها، ولن تكون هذه المؤسسات الحكومية متركزة في العاصمة بل ستوزع في أنحاء القطر.

إن مصلحة المشترين الشخصية، وكذلك التخمين المحلي عند الاقتضاء، ستضمن الأداء الصحيح لما تم الاستيلاء عليه. كذلك فإننا لا نستطيع، ولا نرغب أيضاً، إزالة الفروق بين الأفراد، وبالتالي ستستمر هذه الفروق بين الجماعات المحلية كذلك. إن كل شيء سيشكل نفسه بنفسه بشكل طبيعي. وستصان الحقوق المكتسبة كلها وسيتاح لأعمال التطوير جميعاً أن تأخذ مداها.

سيجري إطلاع شعبنا على هذه الأمور برمتها إطلاعاً تاماً.

ولن نأخذ الآخرين على حين غرة أو نضللهم، مثلما لا نريد أن نخدع أنفسنا.

ويتوجب تسوية كل شيء مسبقاً بشكل نظامي. إنني إنما أشرت إلى مخططي هذا مجرد إشارة، وسيتولى المفكرون تفصيله. إن إنجازات العصر الاجتماعية والفنية وما سينجز منها في عصر أرقى قبل وضع خطتي موضع التنفيذ يجب أن تستخدم كلها لهذا الغرض، كما يجب استخدام المخترعات القيمة الحالية منها أو التي ستظهر في المستقبل.

وبهذه الوسائل يكون من الممكن احتلال قطر ما وإنشاء دولة بطريقة لم يعرفها التاريخ بعد، مع إمكانيات للنجاح لم تحصل قط في السابق.

الدستور

من أهم اللجان التي يترتب على الجمعية تعيينها لجنة الفقهاء لكي تضع للدولة خير دستور عصري. وأعتقد أن الدستور الجيد ينبغي أن يكون ذا طبيعة مرنة بشكل معتدل. لقد شرحت مفصلاً في مؤلف آخر شكل الحكومة الذي أراه أفضل الأشكال. وفي ظني أن الملكية الديمقراطية والجمهورية الارستقراطية هما أروع أشكال الدولة، إذ يكون فيهما شكل الدولة ومبدأ الحكومة أحدهما يقف بوجه الآخر معارضاً وبذلك يتم الحفاظ على توازن حقيقي في السلطة. أنا من أشد المناصرين للمؤسسات الملكية، لأنها تفسح في المجال لسياسة مستمرة، وتمثل مصالح أسرة مشهورة تاريخياً وقد ثقفت لكي تحكم، ورغباتها مربوطة بالحفاظ على الدولة. لكن التاريخ ينقطع دائماً بشكل لا يتيح لنا محاولة الاستمرار المباشر لأشكال الحكم الدستورية القديمة إلا إذا عرضنا أنفسنا لتهمة الخطل.

إن الديمقراطية من دون وجود سلطة ذات سيادة توازيها وتوازنها توازناً نافعاً تكون متطرفة في التأييد وفي الإدانة، وتنحو إلى المناقشات العقيمة في البرلمانات وتفرز طبقة غير مرغوب فيها من السياسيين المحترفين. والأمم كذلك هي في واقع الأمر غير صالحة لديمقراطية غير محدودة في الوقت الحاضر وستكون أقل صلاحاً لها أكثر فأكثر في المستقبل. ذلك أن الديمقراطية الخالصة تفترض مسبقاً شيوع الأعراف البسيطة شيوعاً سائداً، في حين أن أعرافنا ما فتئت تصبح أكثر تعقيداً يوماً بعد يوم مع نمو التجارة وتزايد الثقافة. قال مونتسكيو الحكيم: «إن مبتغى الديمقراطية هو الفضيلة». فأين هي هذه الفضيلة، وأعني الفضيلة السياسية؟ أنا لا أومن بفضيلتنا السياسية، أولاً لأننا لسنا أفضل من باقي الإنسانية الحديثة، وثانياً لأن الحرية تجعلنا نظهر أول ما نُظهر صفاتنا القتالية. إني أرى كذلك أن تسوية القضايا بالاستفتاء إجراء غير صالح

لعدم وجود أسئلة سياسية بسيطة يمكن الإجابة عنها بنعم أو لا. والجماهير كذلك هي أكثر نزوعاً حتى من البرلمان إلى السير وراء الهرطقة من دون تفكير، وتستطيع اللغة المنمقة القوية أن تغيّر آراءها. إن من المستحيل صياغة سياسة حكيمة، داخلية كانت أو خارجية، في مجلس شعبي.

يجب أن تأخذ السياسة شكلها في الشرائح العليا وتأخذ طريقها نزولاً إلى الشرائح الأدنى. لكن ما من أحد في «دولة اليهود» سيكون مغلوباً على أمره، وسيتمكن كل فرد من أفرادها أن يرتقي فيها إلى الأعلى وسيرغب في ذلك. وهكذا سيمر الاتجاه العظيم نحو الأعلى من خلال شعبنا، فبمحاولة كل فرد من الأفراد أن يرتقي بنفسه يجري الارتقاء كذلك بمجموع المواطنين برمته. إن الارتقاء إلى الأعلى سيتخذ شكلاً أخلاقياً هو شكل نافع للدولة ومفيد للفكرة القومية.

لهذا فأنا أميل إلى جمهورية أرستقراطية. إن هذه سترضي الروح الطموح في شعبنا، التي انحطت الآن إلى درك الخيلاء الفارغة التافهة. وتمر بخاطري مؤسسات فينيسيا؛ لكن كل الذي كان فيها وسبب دما فينيسيا يجب العمل على تحاشيه بعناية. إننا سنتعلم من أخطاء غير التاريخية بالطريقة ذاتها التي نتعلم بواسطتها من أخطائنا؛ ذلك أننا أم عصرية ونرجو أن نكون الأمة الأكثر حداثة في العالم. إن شعبنا، الذي يتسلم القطر الجديد من الجمعية، سيكون شاكراً أيضاً للقبول التام بالدستور الجديد الذي ستقدمه إليه. وإذا ما ظهرت معارضة له فإن الجمعية ستقمعها. إن الجمعية لا يسعها أن تسمح بعرقلة ممارستها لوظائفها من قبل أفراد قصيري النظر أو طائشين.

اللغة

قد أقول إن افتقارنا إلى لغة مشتركة متداولة سيؤدي إلى صعوبات. إننا لا نستطيع التفاهم أحدنا مع الآخر بالعبرية. من منا لديه الاطلاع

الكافي على العبرية بحيث يستطيع بها أن يطلب بطاقة لركوب القطار؟ مثل هذا لا يمكن أن يحدث، فمن السهولة بمكان التغلب على الصعوبة. إن بوسع كل امرىء أن يحتفظ باللغة التي يفكر بها بيسر. إن سويسرا تقدم لنا برهاناً قاطعاً على إمكانية وجود فدرالية ألسن. إننا سنظل في القطر الجديد كما نحن الآن هنا، ولن نكف أبداً عن الاعتزاز الحزين بذكرى أرضنا الأصلية التي أخرجنا منها.

إننا سنتخلى عن استعمال تلك الرطانة الهجينة المعوّقة التعيسة، تلك اللغات المستعملة في الغيتو ولم نزل نستخدمها، فتلك كانت ألسنة السجناء السرية. إن المعلمين عندنا سيولون هذا الأمر العناية اللازمة؛ واللغة التي تثبت أنها الأنفع للمخاطبة بين عموم الناس هي التي سيجري تبنيها من غير إكراه بصفتها لغتنا القومية. إن جنسنا فريد المثال، ذلك أننا نرتبط بديانة آبائنا وأجدانا.

الحكومة الدينية (الثيوقراطية)

هل سينتهي الأمر بنا إلى حكومة دينية؟ كلا. إن الإيمان يوحدنا والمعرفة تمنحنا الحرية. لذلك فإننا سنحول دون ظهور اتجاهات ثيوقراطية من طرف كهنتنا، فسنبقي على هؤلاء ضمن حدود المعابد، تماماً كما سنبقي على جيشنا المحترف ضمن حدود الثكنات. إن الجيش والكهنوت سيكونان موضع التكريم الرفيع الذي تستحقه وظائفهما القيمة. لكن عليهما عدم التدخل في إدارة الدولة التي تنعم عليهما بالامتياز، وإلا فسيصطنعان المشاكل في الداخل والخارج.

سيكون كل فرد حراً في إيمانه أو معتقده كما هو حر في جنسيته، لا يقلقه في ذلك أحد. أما إذا جاء رعايا العقائد الأخرى وحملة الجنسيات المختلفة للعيش بين ظهرانينا فإننا سنوليهم الحماية المشرّفة والمساواة أمام القانون. لقد تعلمنا التسامح في أوروبا، ولا أقول هذا تهكماً، ذلك أن اللاسامية اليوم لا يمكن أن تحسب بمثابة عدم التسامح

الديني القديم إلا في أمكنة قليلة جداً. إنها في معظم النواحي حركة موجودة في الأمم المتحضرة تحاول بواسطتها أن تطرد أشباح ماضيها.

القوانين

عندما تقترب فكرة إنشاء دولة من التحقيق تقوم جمعية اليهود بتعيين مجلس فقهاء ليتولى الإعداد للتشريع. في خلال المرحلة الانتقالية يكون على هؤلاء الفقهاء أن يعملوا على أساس المبدأ الذي يقضي بالنظر إلى اليهودي المهاجر وفق قوانين القطر الذي هاجر منه. لكن عليهم أن يحاولوا توحيد هذه القوانين المختلفة لوضع نظام عصري للتشريع يستند إلى أفضل ما ورد في الأنظمة السابقة. وقد يصبح هذا النظام مدوّنة نموذجية تضم جميع المطالب الاجتماعية العادلة ليومنا الحاضر.

الجيش

إن الدولة اليهودية في تصورنا هي دولة محايدة، لذا فإنها ستحتاج فقط إلى جيش محترف، مزود بالطبع بكل مقتضيات الحرب الحديثة وذلك لحفظ النظام داخلياً وخارجياً.

العلم

ليس لدينا علم ونحن بحاجة إليه. فإذا كانت الرغبة هي قيادة العديد من الرجال فعلينا أن نرفع رمزاً فوق رؤوسهم.

أقترح أن يكون العلم أبيض اللون مع سبع نجوم ذهبية. يرمز البياض إلى حياتنا الجديدة النقية، وترمز النجوم إلى الساعات الذهبية السبع ليوم عملنا. ذلك أننا سندخل أرض الميعاد حاملين شارة الشرف.

معاهدات المعاملة بالمثل وتسليم المجرمين

يجب أن يجري تأسيس «دولة اليهود» الجديدة بشكل صحيح، مع الأخذ بالاعتبار اللازم مركزنا المحترم في العالم مستقبلاً. لذلك يتوجب

الوفاء بالالتزامات التي ترتبت في القطر القديم وفاءً دقيقاً قبل المغادرة. وستقوم جمعية اليهود والشركة اليهودية بمنح أجور سفر رخيصة ومزايا معينة في الاستيطان إلى الذين يقدمون شهادة رسمية من السلطات المحلية تفيد بأنهم قد رتبوا أمورهم على الوجه الصحيح قبل المغادرة.

إن أية مطالبة شخصية عادلة تنشأ في الأقطار التي هجرت سينظر فيها في «دولة اليهود» بأسرع مما تنظر في أي مكان آخر. لن ننتظر المقابلة بالمثل إنما سننطلق في هذه الأمور من أجل شرفنا. ولعلنا سنكتشف في ما بعد أن المحاكم ستكون أكثر استعداداً للنظر في دعاوانا مما يجري في بعض الأمكنة.

يستنتج من الملاحظات السابقة، بالطبع، أننا سنقوم بتسليم المجرمين اليهود بأسرع مما تفعل ذلك أية دولة أخرى، إلى أن يحين الوقت الذي نستطيع فيه تنفيذ قوانينا العقابية على أساس المبادىء ذاتها التي تسير عليها الأمم المتحضرة الأخرى. لهذا ستمر فترة انتقالية لن نتسلم خلالها مجرمينا إلا بعد قضاء عقوباتهم. لكنهم ما ان يصلحوا أنفسهم حتى يجري تسلمهم بلا قيود على الإطلاق، ذلك أن مجرمينا كذلك يجب أن يباشروا الدخول في حياة جديدة.

وهكذا قد تصبح الهجرة للعديد من اليهود بمثابة أزمة ذات قضية سعيدة. إن الظروف الخارجية السيئة التي قد تحطم العديد من الأشخاص ستزال، وقد يعني هذا التغيير خلاصاً لكثير من الضالين.

وهنا أود أن أروي باقتضاب حكاية اطلعت عليها في تقرير عن مناجم الذهب في ويتووترسراند. فقد جاء رجل إلى هناك ذات يوم واستقر وأخذ يجرب حظه في أمور شتّى باستثناء التنقيب عن الذهب إلى أن أسس معملاً للثلج عمل جيداً. وسرعان ما كسب احترام الجميع، لكنه اعتقل فجأة بعد عدد من السنين. كان، بصفته مصرفياً في فرانكفورت، قد اقترف اختلاساً ففرّ من هناك وبدأ حياة جديدة باسم

مستعار. لكنه حين اقتيد كسجين جاء أناس محترمون إلى المحطة لتوديعه، ذلك أنه كان على ثقة بالعودة.

يا لها من حكاية تكشف عن الكثير! إن حياةً جديدة قد تخلق حتى المجرمين من جديد، وعندنا من هؤلاء عدد قليل نسبياً. ولعل من المفيد الاطلاع على بعض الإحصاءات عن هذه النقطة، وقد وردت في عمل عنوانه «إجرام اليهود في ألمانيا» بقلم الدكتور پ. ناثان من برلين، فقد كلفته بذلك «جمعية الدفاع ضد اللاسامية» لجمع إحصاءات رسمية عن الموضوع. صحيح أن هذا الكتيب الحافل بالأرقام قد حفزه، كعدد آخر من مثل هذا «الدفاع»، الخطأ الذي مفاده أن اللاسامية يمكن دحضها بحجج معقولة. إننا ربما نثير الكراهية في النفوس بسبب مواهبنا كما نثيرها بسبب أخطائنا.

منافع هجرة اليهود

أتخيل أن الحكومات ستولي اهتماماً معيناً بهذا المخطط، وسيجري ذلك إما طوعاً أو كرهاً بضغط من اللاساميين، ولعلها ستتلقاه بتعاطف هنا وهناك، وهو تعاطف ستظهره أيضاً لجمعية اليهود.

ذلك أن الهجرة التي أقترحها لن تحدث أية أزمة اقتصادية. بل إن الأزمات التي تعقب اضطهاد اليهود من كل مكان سيتم تجنبها بتنفيذ خطتي. إن مرحلة عظمى من الرخاء ستبدأ في الأقطار التي هي الآن لاسامية. فستحدث، كما قلت مراراً، هجرة داخلية للمواطنين المسيحيين للحلول محل المراكز التي يتركها اليهود حلولاً بطيئاً ونظامياً. هناك من يقول إن الحركة سيكون لها أثر ناقع على العموم لو جرت مساعدتنا فيها ولو أننا لم نتعرض للشقاء. لكن هذا رأي محدود الأفق ينبغي التخلص منه، إذ إنه يرى أن في مغادرة العديد من اليهود إفقاراً تبعياً للأقطار المعنية. إن الأمر يختلف كثيراً حين تكون المغادرة نتيجة الاضطهاد، لأنه في هذه الحالة تدمر الممتلكات تماماً كما تدمر في فوضى الحرب. والأمر

يختلف أيضاً لأن المسألة هي مغادرة طوعية مسالمة لمستوطنين، وينفذ فيها كل شيء بكل اعتبار للحقوق المكتسبة، ووفقاً للقانون بشكل مطلق، وعلناً وفي ضوء النهار، وتحت أنظار السلطات ورقابة الرأي العام. إن هجرة العمال المسيحيين إلى أنحاء العالم المختلفة ستتوقف بفعل الحركة اليهودية.

وستحصل الدول على فائدة أخرى من الزيادة الكبيرة في صادراتها، ذلك أن المهاجرين اليهود «هناك» سيعتمدون على المنتجات الأوروبية أمداً طويلاً فيكون عليهم بالضرورة استيرادها. أما الجماعات المحلية فستحافظ على توازن عادل، وسيكون من اللازم تجهيز الحاجيات المعتادة في الأماكن المعهودة مدة طويلة من الزمن.

الفائدة الأخرى، ولعلها أهم الفوائد، ستكون ظهور أعمال الإغاثة الاجتماعية. إن التذمر الاجتماعي سيكون محل استرضاء ومهادنة خلال مدة قد تزيد على عشرين سنة، وهي المدة التي ستستغرقها هجرة اليهود، كما أن هذا التذمر سيكون في موضع السكون خلال المرحلة الانتقالية برمتها.

إن الشكل الذي ستتخذه المسألة الاجتماعية سيعتمد كلياً على تطور مواردنا الفنية. إن قوة البخار جعلت العمال يزدحمون في المصانع حول المكائن، وهذا الزحام الشديد يفاقم من تعاستهم. أما معدل إنتاجنا الحاضر، الكبير والطائش وغير النظامي، فهو السبب في الأزمات الحادة المستمرة التي تدمر المستخدِمين والمستخدَمين معاً. جاء البخار فأدى إلى زحام العمال، ولعل الكهرباء ستؤدي إلى انتشارهم مرة أخرى وربما تحدث حالة في سوق العمالة أفضل من الحالة السابقة. على أية حال فإن مخترعينا الفنيين، وهم المحسنون الحقيقيون للإنسانية، سيواصلون الكد بعد بدء الهجرة اليهودية وسيكتشفون أروع الأشياء كتلك التي شهدنا أمثالها أصلاً، بل حتى أروع منها.

إن كلمة «مستحيل» لم تعد موجودة في قاموس العلوم. ولو عاد رجل عاش في القرن الماضي إلى الحياة فإنه سيجدها اليوم حافلة بسحر يستعصي على الفهم. وأينما نظهر نحن ـ العصريين ـ على وجه الأرض مع مخترعاتنا فإننا نحوّل الصحارى إلى حدائق. إن بناء مدينة ما، كان يستغرق قروناً في الماضي، وهو يستغرق اليوم بضع سنين، ولنا في أمريكا أمثلة لا تعد ولا تحصى على هذا. لم تعد المسافات عائقاً. إن روح عصرنا قد جمعت النفائس الباهرة في خزائنه. وهذه الثروة تتزايد يوماً بعد يوم. إن آلاف العقول منشغلة بالبحوث في كل بقعة من بقاع الكرة الأرضية وما يكتشفه أحدهم يكون في اللحظة التالية ملكاً للعالم بأسره. إننا نحن أنفسنا سنستعمل كل محاولة جديدة في أرضنا اليهودية ونسير بها قدماً؛ فكما أننا سنبدأ بتطبيق يوم العمل البالغ سبع ساعات كتجربة لخير الإنسانية فإننا سنمضي قدماً في كل شيء آخر بالروح الإنسانية ذاتها لنجعل الأرض الجديدة أرض تجاريب ودولة نموذجية.

بعد مغادرة اليهود ستظل المشاريع التي قاموا بها في مكانها الأصلي الذي أنشئت فيه. أما روح الإقدام اليهودية فلن تخيب هناك حيث يرحب بها الناس. ذلك أن الرأسماليين اليهود سيسرهم استثمار أموالهم في الأمكنة التي يكونون فيها على اطلاع بالظروف السائدة. وفيما يرسل المال اليهودي الآن إلى خارج الأقطار بسبب الاضطهاد القائم، لتختفي في مشاريع أجنبية نائية، فإنها ستتدفق عائدةً مرة أخرى نتيجةً لهذا الحل المسالم، وستسهم بمزيد من التقدم في الأقطار التي تركها اليهود.

سادساً: الخاتمة

ما أكثر الأمور التي تركت من دون شرح في هذا الكتيب، ما أكثر المعايب والسطحيات المضرة، والتكرار الذي لا فائدة منه، وقد أعدت التفكير فيها طويلاً وغالباً ما قمت بتنقيحها!

لكن القارىء المنصف الذي يتمتع بالفهم الكافي لإدراك روحية كلماتي لن تنفره هذه المعايب. إنه بالأحرى سيستثار ليوظف ذكاءه وطاقته للتعاون في عملٍ ليس هو بمهمة رجلٍ واحد بمفرده، ولتحسين هذا العمل.

ألم أشرح أموراً بديهية وأغفل اعتراضات مهمة؟

لقد حاولت تفهم اعتراضات معينة والعمل بمقتضاها، لكني أعرف أن عدداً آخر منها ستترى، ومنها ما يقوم على أسس قويمة ومنها ما يقوم على عكس ذلك من الأسس الهاوية.

تنطلق الفئة الأولى من الاعتراضات من ملاحظة مفادها أن اليهود هم ليسوا الشعب الوحيد في العالم الذي يعاني محنة. وجوابي على هذا أنه يجدر بنا أن نبدأ بالتخفيف بعض الشيء من هذا الشقاء، ولو أنه تخفيف لن يكون في البداية سوى التخفيف من شقائنا.

قد يقال أيضاً ان علينا ألا نخلق تمايزات جديدة بين الناس، وألا نقيم حواجز جديدة بل علينا أن نزيل الحواجز القديمة. لكن الذين يفكرون على هذا النحو هم الحالمون الودودون، أما فكرة الأرض الأصلية

فستظل مزدهرة عندما تذرو الرياح رماد عظامهم. إن الأخوّة العالمية هي ليست حتى بالحلم الجميل؛ والعداوة ضرورية لأعظم مساعي الإنسان.

لكن اليهود عند استقرارهم في دولتهم لن يكون لهم مزيد من الأعداء، وبما أنّ الرخاء يوهنهم ويقلل من شأنهم فسرعان ما سيختفي الأعداء كلياً. أنا شخصياً أظن أن اليهود سيكون لهم دائماً ما يكفي من الأعداء، شأنهم في ذلك شأن الأمم الأخرى. هذا وما ان يثبّتوا أقدامهم في أرضهم ذاتها حتى لا يكون من الممكن لهم التشتت في أرجاء العالم. إن الشتات لا يمكن أن يحدث مرة أخرى إلا إذا هوت حضارة العالم، وهذا ما لا يخشاه إلا الحمقى. إن لدى حضارتنا الحاضرة من الأسلحة القوية ما يكفي للدفاع عن نفسها.

سيكون العديد من الاعتراضات قائماً على أسس واهية، ذلك أن هناك في العالم من السافلين أكثر مما فيه من النبلاء. لقد حاولت إزاحة بعض هذه الأفكار الضيقة الأفق؛ فعلى من هو مستعد للسير وراء علمنا الأبيض ذي النجوم السبع أن يساعد في حملة التنوير هذه. وربما سيكون علينا أن نكافح أولاً ضد أولئك الأفراد من جنسنا ذاته، الذين جبلوا على الشر وضاقت صدورهم وغشيت أبصارهم.

سيقول الناس من جديد انني أزود اللاساميين بالسلاح. لماذا؟ ألأنني أقرّ بالحقيقة؟ ألأنني لا أرى أن هناك بيننا إلا أناساً رائعين؟

هل سيقول الناس إنني أدل أعداءنا على الطريق للإضرار بنا؟ وهذا قول أختلف معه بشكل مطلق. إن اقتراحي لا يمكن تنفيذه إلا بالقبول الحر من أغلبية اليهود. قد تتخذ الإجراءات ضد الأفراد أو حتى ضد جماعات من أقوى اليهود، لكن الحكومات لن تتخذ أبداً إجراءً ضد اليهود كلهم. إن الحقوق المتساوية لليهود أمام القانون لا يمكن سحبها بعد إقرارها، ذلك أن أول محاولة للقيام بذلك ستدفع باليهود كلهم في الحال، غنيهم وفقيرهم على السواء، إلى صفوف الأحزاب الثورية. إن

البدء بأي عمل رسمي ظالم ضد اليهود يؤدي دائماً إلى أزمات اقتصادية. لهذا فليس هناك من سلاح يمكن استخدامه بشكل فعال ضدنا لأنه سلاح يجرح الأيادي التي تشهره. في هذا الأثناء تنمو الكراهية بسرعة. إن الأغنياء لا يشعرون بها كثيراً، على خلاف الفقراء. فلنسأل الفقراء عن ذلك فهم الذين استغلوا كثيراً كعمال منذ تجدد اللاسامية استغلالاً لا مثيل له في السابق.

قد يقول بعض ذوي الرخاء منا إن الضغط لم يزل غير شديد بما يكفي لتبرير الهجرة، وإن الطرد القسري يظهر مدى عدم الاستعداد لدى شعبنا للمغادرة. وهذا صحيح لأنهم لا يعرفون إلى أين يذهبون، ولأنهم دائماً نهب المتاعب. لكننا نريهم الطريق إلى أرض الميعاد، فعلى قوة الحماسة الرائعة أن تكافح ضد القوة الفظيعة للعادات.

إن الاضطهاد لم يعد خبيثاً بالدرجة التي كان عليها في العصور الوسطى. نعم، لكن حساسيتنا قد تزايدت، لذا فإننا لا نشعر أن شقاءنا قد تضاءل؛ إن الاضطهاد الطويل قد وتر أعصابنا كثيراً.

وهل سيقول الناس ان مشروعنا خائب، فحتى لو حصلنا على الأرض مع السيادة عليها فلن يذهب معنا إلا الفقراء؟ إن الذين نحتاج إليهم في البداية هم بالضبط الفقراء المدقعين، فالمستميتون اليائسون وحدهم هم خير الفاتحين.

هل سيقول أحدهم: لو كان الأمر ممكناً لكان قد جرى تنفيذه منذ أمد طويل؟

لم يكن الأمر ممكناً في السابق قط، وهو ممكن الآن. إنه كان سيعتبر قبل مئة عام، أو حتى قبل خمسين عاماً، مجرد حلم. أما اليوم فإنه قد يصبح حقيقة واقعة. إن أغنياءنا، وهم يعرفون ويستلذون بإنجازاتنا الفنية كلها، يعلمون كل العلم ما يمكن أن يفعله المال. وسيكون الأمر هكذا: إن الفقراء والبسطاء وحدهم، الذين لا يعرفون القوة التي

يمارسها الإنسان على قوى الطبيعة، هم الذين سيؤمنون إيماناً راسخاً بالرسالة الجديدة، فهؤلاء لم يفقدوا قط أملهم بأرض الميعاد.

ها هو الأمر، يا إخواني اليهود! لا هو بالخيال ولا هو بالخديعة! ولكل امرىءٍ أن يختبر حقيقة الأمر بنفسه، ذلك أن كل فرد سيحمل معه إلى هناك قطعة من أرض الميعاد ـ هذا يحملها في رأسه، وذاك بين ذراعيه، وثالث بممتلكاته المكتسبة.

قد يبدو هذا شأناً طويلاً حد السأم. فعلى فرض أحسن الظروف قد تنصرم السنون العديدة قبل البدء بتأسيس الدولة. في هذه الأثناء سيعاني اليهود في آلاف الأمكنة المختلفة من الإهانة والمعرّة وسوء التصرف والضربات والاستلاب والموت. كلا، فلو أننا فقط بدأنا بتنفيذ الخطة لتوقفت اللاسامية في الحال وإلى الأبد. ذلك أن البدء هو عقد للسلام.

إن أنباء تأليفنا للشركة اليهودية ستحملها أسلاك البرق بسرعة البرق إلى أقاصي الأرض في يوم واحد.

وسينطلق في الحال الشعور بالانفراج. إن أصحاب الملكات العادية، وفي طبقاتنا الوسطى العدد الوفير جداً منهم، سيجدون منفذاً في تنظيماتنا الأولى ليكونوا فيها من أوائل الفنيين والضباط والأساتذة والموظفين ورجال القانون والأطباء؛ وهكذا ستستمر الحركة في تقد سريع لكنه ممهَّد.

وستقام الصلوات في المعابد، والكنائس أيضاً، من أجل نجاح عملنا، فالنجاح سيكون بمثابة الفرج من عبء قديم قاسينا منه جميعاً.

لكنّ علينا أولاً تنوير عقول الناس. ويجب أن تشق الفكرة طريقها إلى أقصى جحر تعيش يقطنه أهلنا. إنهم سيفيقون من سهومهم الكئيب، إذ سيكون لحياتهم مغزى جديد. وما على المرء إلا أن يفكر بنفسه فقط،

ومن ثم ستتخذ الحركة أبعاداً واسعة.

ويا له من مجدٍ ينتظر أولئك الذين يقاتلون من أجل القضية من دون أنانية!

لذا، فباعتقادي أن جيلاً مدهشاً من اليهود سيظهر إلى الوجود. إن المكَابيين العبريين سيبعثون أحياء من جديد.

فلأكرر مرة أخرى كلماتي الافتتاحية: إن اليهود الراغبين سيحصلون على دولتهم.

إننا أخيراً سنحيا أحراراً على ترابنا، ونموت بسلام في بيوتنا.

إن العالم سيحرر بواسطة حريتنا، وسيغتني بواسطة ثروتنا وسيعظم أمره بواسطة عظمتنا.

وإن أي شيء نحاوله هناك من أجل رفاهنا سينعكس بقوة وينفع لخير الإنسانية.

هذا الكتاب

لقد كتب الكثيرون وترجموا، لكن الملفت أن لا يهتم أحد بكتاب مهم وأساسي من كتب الدعوة الصهيونية هو كتاب «دولة اليهود» الذي ألفه تيودور هرتزل قبل أكثر من مائة سنة. والكتاب، برأي بعض المؤرخين والعديد من الصهاينة، اعتبر «إنجيل الحركة الصهيونية... ودستورها... وحجر الأساس في بناء دولة إسرائيل» وسمى المتعصبون الصهاينة مؤلف الكتاب إنه «نبي الحركة الصهيونية... والأب التاريخي والروحي لدولتهم»، وقد نشر الكتاب في ١٤/٢/١٨٩٦ باللغة الألمانية وأحدث إصداره ضجة كبيرة في الأوساط اليهودية الأوروبية.

إن هذا الكتاب الذي تترجمه مؤسسة الأبحاث العربية ترى فيه خطوة متواضعة لمعرفة هذا العدو وفكره وأساليبه، فمعرفة العدو ضرورة أساسية في الكفاح ضده...

مؤسسة الأبحاث العربية